آيات ملة إبراهيم عليه السلام
"دراسة قرآنية في التوحيد ودلالات المعاني"

دكتور/ محمود حسني عبد الوهاب إبراهيم
كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة
جامعة الأزهر الشريف

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستغفره ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله... ثم أما بعد

إن آيات ملة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم تحمل في طياتها معاني عميقة ودروسًا قيمة تُبرز مسيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام، الذي يُعد رمزًا للتوحيد والإيمان الخالص، ويصف القرآن إبراهيم عليه السلام بأنه"حنيفاً"، مما يدل على انحيازه الكامل إلى عبادة الله وحده ورفضه للشرك، وتتجلى ملامح ملة إبراهيم في العديد من السور، حيث يُبرز القرآن دعوته إلى التوحيد والابتعاد عن الأوثان، مشيرًا إلى عظمة إيمانه وتفانيه في طاعة الله، كما يُذكر كيف اجتاز إبراهيم عليه السلام اختبارات عظيمة، منها دعوته لأهله وقومه، وتقديمه نفسه كقدوة في الإيمان والثبات، إن آيات ملة إبراهيم عليه السلام تمثل دعوة لكل مؤمن لتبني قيم التوحيد والصدق والعدالة، ولتكون مرجعًا في فهم معنى الإخلاص لله في العبادة والسلوك، فهذه الآيات لا تقتصر على كونها قصصًا تاريخية، بل هي مبادئ وأخلاقيات يجب أن تُستلهم في حياتنا اليومية، لتكون ملة إبراهيم عليه السلام منهجًا نعيش به ونسعى لتحقيقه في مجتمعاتنا، إن ملة إبراهيم عليه السلام هي الإسلام الحق الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين منذ فجر البشرية، بدءًا من نبي الله آدم عليه السلام، وحتى خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فجوهر الدين واحد، حيث أرسل الله به جميع الأنبياء ليكونوا رسلاً لهداية البشرية، فاجتمعت دعواتهم وتوحدت مساعيهم نحو هدف واحد، يتمثل في عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ كل ما سواه، فالأنبياء وسائط بين الله وعباده، يشرحون لهم معاني التوحيد، ويعلمونهم ما ينفعهم وما يضرّهم في حياتهم الدنيا والآخرة، ولقد بعثهم الله جميعًا برسالة واحدة، هي الدين الجامع الذي يهدف إلى تحقيق السعادة والنجاح في

الحياة، من خلال الاستمساك بحبله المتين، فدعوتهم تتمحور حول مفهوم التوحيد، الذي يحقق للإنسان الاستقرار الروحي والأخلاقي، ويرسم له معالم الطريق نحو الفلاح في الدنيا والآخرة، إذًا ملة إبراهيم عليه السلام ليست مجرد شعائر أو عبادات، بل هي نظام شامل للحياة، يوجه الإنسان نحو الخير ويعزز من قيم التراحم والتسامح، فكل نبي كان بمثابة مشعل ينير دروب الناس، ويقودهم إلى عبادة الله وحده، ليكونوا أمة واحدة تحت راية التوحيد، تسعى لتحقيق العدالة والسلام في كل مكان

أهمية الموضوع :

١ـ تعزيز مفهوم التوحيد فهذه الآيات تقدم رؤية شاملة حول التوحيد كركيزة أساسية في الدين الإسلامي، مما يُساعد المؤمنين على فهم أهمية الإخلاص لله في العبادة.

٢ـ ما يتمتع به إبراهيم عليه السلام من منزلة رفيعة عند المسلمين، فيختم المسلمون صلواتهم بالصلاة الإبراهيمية، وفيها الدعوة بالصلاة والتبريك لسيدنا محمد وإبراهيم وآلهم، وإظهار ما يتمتع به عليه السلام باصطفاء الله تعالى له وبأن جعله خليلاً له وأباً للأنبياء من بعده، فهو من أولي العزم من الرسل، ومثال يُحتذى به في الإيمان والثبات.

٣ـ يتناول الموضوع كيفية مواجهة التحديات والاختبارات في سبيل الحفاظ على الإيمان، مما يُعزز من القدرة على التكيف مع الظروف المتغيرة والتفاعل مع التحديات.

٤ـ تسلط الضوء على أهمية العقيدة لتبقى سليمة من الأفكار الدخيلة عليها، وإحياء تراث السلف الصالح.

أسباب اختيار الموضوع:

١ـ الاستجابة للحاجة المعرفية، فهناك حاجة ملحة لفهم أعمق لمفاهيم التوحيد في السياق القرآني، مما يُساهم في تعزيز الوعي الديني لدى الأفراد.

٢ـ ربط الماضي بالحاضر فهذا الموضوع يُساعد في ربط الدروس المستفادة من حياة إبراهيم عليه السلام بتحديات العصر الحديث، مما يُعزز من فهمنا للقيم الإسلامية.

٣ـ يُتيح دراسة الآيات الفرصة للتفاعل مع النصوص القرآنية بشكل أعمق، مما يُعزز من فهمنا للغة العربية وبلاغتها.

٤ـ يُساعد هذا الموضوع في تعزيز الهوية الإسلامية لدى الشباب، من خلال تسليط الضوء على قصص الأنبياء ودروسها.

منهج البحث: لقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث قمت بالغوص في الآيات التي تتحدث عن ملة إبراهيم عليه السلام، مستعرضًا آراء العلماء وما

أبدوه من أفكار حولها، كما استندت إلى الأحاديث النبوية التي تتصل بموضوع البحث، ساعيًا لفهم أبعادها.

مشكلة البحث: تعتبر ملة إبراهيم محور للجدل بين الأديان السماوية الثلاثة:اليهودية، المسيحية، والإسلام، وهذا يثير النقاشات حول أوجه الشبه والاختلاف بين الأديان، ويؤدي ذلك إلى جدل حول القيم والأخلاق والممارسات، وكذلك يفتقر التاريخ البشري إلى وثائق دقيقة عن تفاصيل حياة إبراهيم عليه السلام وممارسته للملة، مما يجعل من الصعب الاعتماد على السرد التاريخي، وبشكل عام الحديث عن ملة إبراهيم عليه السلام يواجه تحديات تعود إلى التاريخ، الفهم الديني، والسياق الثقافي، مما يجعل الحوار حولها معقدًا، فمن ناحية التطبيق المعاصر كيف يمكن تطبيق مبادئ ملة إبراهيم في الزمن المعاصر؟ وكذلك الاختلافات الثقافية والاجتماعية والسياسية تجعل هذا الموضوع أكثر تعقيدًا

الدراسات السابقة: تعددت الدراسات التي تناولت موضوع البحث، حيث انطلقت كل واحدة منها من زوايا متنوعة، تختلف في تركيزها وعمقها، وقد كان لي شرف الاستفادة من هذه الدراسات الغنية، والتي أدرجتها في فهرس البحث، فذكرت الرسائل والأبحاث التي وقفت عليها، ورغم أنني لم أعثر على دراسة تحمل نفس عنوان بحثي.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، تحت عنوان: آيات ملة إبراهيم عليه السلام"دراسة قرآنية في التوحيد ودلالات المعاني"

المقدمة: واشتملت على أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومنهج البحث، ومشكلة البحث وكذلك الدراسات السابقة

المبحث الأول:مفهوم آيات ملة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم،ويشتمل على مطلبين.

المطلب الاول: التعريف بملة إبراهيم عليه السلام.

المطلب الثاني: مكانة إبراهيم عليه السلام في القرآن: نموذج للتوحيد الخالص

المبحث الثاني: آيات ملّة إبراهيم عليه السلام: دروس في التوحيد والهداية الإلهية، ويشتمل على مطلبين.

المطلب الأول: اتباع ملّة إبراهيم وأثرها في بناء الهوية الإسلامية وتعزيز الإيمان

المطلب الثاني: أبعاد التوحيد في آيات ملة إبراهيم عليه السلام:دعوة للفطرة واليقين

المبحث الثالث: الدراسة التفسيرية والبلاغية لآيات ملة إبراهيم عليه السلام في القرآن

الخاتمة، وفهرس الموضوعات والمراجع.

المبحث الأول:مفهوم آيات ملة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم، ويشتمل على مطلبين

المطلب الأول: التعريف بملة إبراهيم عليه السلام

أولاً: الملة في اللغة: تأتي كلمة"ملة"من الجذر"م ل ل"، الذي يعني السير في الطريق أو اتباع نهج معين، والمِلَّة في اللغة من مَلَّ يَمِلُّ، بِالْكَسْر كسر الْمِيمِ، إِذا أَخذ المِلَّة، ومَلَّ يَمُلُّ مَلًّا وامْتَلَّ وتَمَلَّلَ أَسرع، وامْتَلَّ: دَخَلَ فِي المِلَّة، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيز"حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ"، والمِلَّة: الدِّينُ كملَّة الإِسلام والنَّصرانية وَالْيَهُودِيَّة، وَقِيلَ:هِيَ مُعْظَم الدِّينِ وَجُمْلَةُ مَا يَجِيءُ بِهِ الرُّسُـلُ(١)، وقيـل: النحلة: الملة والدين(٢)، ومِلَّةُ رَسُوْلِ اللهِ صلى الله عليه وسلم:الأَمْرُ الذي أوْضَحَه، والطَّرِيْقَةُ، والسُّنَّةُ، وامْتَلَّ الرَّجُلُ: أخَذَ في مِلَّةِ الإِسلام، وهو يَمِلُّ مِلَّتَه، والمِلَّةُ:الدِّيَةُ، وجَمْعُهـا مِلَـلٌ(٣)، ومن المجاز في استعمال الملة بمعنى الطريقة المسلوكة، ومنها:ملّة إبراهيم خير الملل، وامتـلّ فلان ملّة الإسلام(٤)، ومعنى ملتهم في اللغة سنتهم وطريقتهم، ومن هذا المَلـة أي الموضـع الذي يختبز فيه، لأنها تؤثر في مكانها كما يؤثِّر في الطريق، وكلام العـرب إذا اتفـق لفظـه فأكثره مشتق بعضه من بعض، وآخذ بعضه برقاب بعض(٥).

يقول صاحب القاموس:الملة بالكسر هي الشريعة أو الدين، والمُلَّةُ بالـضم:الخِياطَـةُ الأولَـى، وتَمَلَّلَ وامْتَلَّ:دَخَلَ فيها، ومَلَّ القوسَ أو السَّهْمَ بالنار:عالَجَه بها(٦).

وأصل الملة في اللغة: من قَوْلك طَرِيق مليل إِذا تكَرر سلوكه حَتَّى تُوطأ وَمِنْـه الْمَلَـل وَهُـوَ تكْرَار الشَّيْء على النفس حَتَّى تضجر، وَقيل الْملَّة مَذْهَب جمَاعَة يحمي يعضهم بَعـضاً عنْـد الْأُمُور الْحَادِثَة واصلها من المليلة وَهِي ضرب من الْحمى وَمِنْه الْملَّة مَوضِع النَّار وَذَلِـكَ أَنـه إِذا دفن فِيهِ اللَّحْم وَغَيره(٧)، وقيل: الملّة هي الرماد الحارّ، أي الدمس، ويقـال لـه الرَّمْـضَة أيضا(٨).

---

(١)لسان العرب محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت/٧١١هـ)، (٦٣١/١١)، دار صـادر، بيـروت، ط٣، ١٤١٤هـ، (٤٢٧١/٦)، ط المعارف

(٢)إعراب القرآن وبيانه محيي الدين بن أحمد مصطفي درويش(ت: ١٤٠٣هـ)، (١٥٤/٢)، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، (دار اليمامة، دمشق، بيروت)، (دار ابن كثيـر، دمـشق، بيروت)، ط٤ ، ١٤١٥هـ.

(٣)العين أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت/١٧٠هـ)، (٣٢٤/٨)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال ، المحيط فـي اللغـة إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد (ت/٣٨٥ هـ)، (٣١٨/١٠)، عالم الكتب، بيروت/ لبنان، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤ م، ط١، ت/ الـشيخ محمـد حـسن آل ياسين.

(٤)أساس البلاغة أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت/٥٣٨هـ)، (٢٢٨/٢)، ت/محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م

(٥)معاني القرآن وإعرابه للزجاج إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت/٣١١هـ)، (٢٠٢/١)، ت/عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨م

(٦)القاموس المحيط مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت/٨١٧هـ)، (ص١٠٥٨)ت/ مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعـيم العرقـسُوسي، مؤسـسة الرسـالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م

(٧)الفروق اللغوية للعسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري(ت/ ٣٩٥هـ)، (ص٢٢٠)، حققه وعلق عليه:محمد إبراهيم سـليم، دار العلـم والثقافـة للنـشر والتوزيع، القاهرة، مصر

(٨)معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور(ت/١٣٤٨هـ)، (٣٩٤/٥)، المحقق: دكتور حسين نصّار، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، مـصر، ط٢، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م

وهناك ثلاثة إطلاقات للفظ الملة :

الإطلاق الأول: تطلق على العقيدة الدينية للكافرين المعاندين قال تعالى"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا "سورة إبراهيم ١٣

الإطلاق الثاني: تطلق الملة ويراد بها الدين الحق الحنيف الصحيح، فالإسلام عُبر عنه بـ ملة إبراهيم قال تعالي"وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا "سورة النساء ٢٥"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " النحل ١٢٠، ١٢٣

الإطلاق الثالث: تطلق على مطلق العقيدة، سواء اكانت صحيحة أم فاسدة سماوية أم أرضية، إلهية أم بشرية ومنه جاء قوله تعالي حكاية عن يوسف عليه السلام"إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ علينا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ"سورة يوسف ٣٨، ٣٧، فهنا أطلقت على الاثنين معاً، أو على ما يعتقده الإنسان مطلقاً سواء أكان صحيحاً أم فاسداً (١).

يقول الأستاذ الدكتور/محمد سيد طنطاوي: الملة الطريقة المسلوكة، ثم جعلت اسما لما شرعه الله لعباده على لسان نبيه ليتوصلوا إلى السعادة الدائمة، وقد تطلق على ما ليس حقا من الأديان المنحرفة أو الباطلة، كما حكى القرآن عن يوسف عليه السلام أنه قال:"إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ"، وأفرد القرآن الملة فقال تعالى"ملتهم"مع أن لكل من اليهود والنصارى ملة خاصة، لأن الملتين بالنظر إلى مخالفتهما لدين الإسلام وما طرأ عليهما من التحريف بمنزلة واحدة، فاتباع إحداهما كاتباع الأخرى في قلة الانتفاع به(٢)، إن مصطلح "الملة" في اللغة العربية ليس مجرد لفظ يُستخدم للدلالة على الاتجاه أو الطريق، بل هو تعبير يحمل في طياته معاني عميقة ودلالات متعددة، فهو يشير إلى السير في مسار محدد، يتجاوز حدود اللغة ليعكس أبعادًا روحية ودينية سامية، فالملة عند استخدامها، تعني الدين الذي يُعبر عن العقيدة والتوجه، كما أنها تشير إلى السنة والطريقة التي يُحتذى بها في الحياة، إن هذه الكلمة تجسد مفهوم الالتزام والاتباع، حيث يرتبط بها الأفراد في سعيهم نحو

---

(١)مدخل لدراسة الملل والنحل د/أحمد شوقي إبراهيم على، (ص٨١١، ٨١٢)، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالاسكندرية، المجلد السابع ، العدد الثاني والثلاثين.

(٢)التفسير الوسيط ا.د/محمد سيد طنطاوي(٢٦٢/١)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط١

تحقيق قيمهم الروحية والأخلاقية، لذا فإن الملة تمثل أكثر من مجرد تعريف لغوي؛ إنها تجسد الهوية والانتماء والطريقة التي يُنظم بها الفرد حياته وفقًا لمبادئ معينة.

ثانياً: الملة اصطلاحاً: والملة كالدين وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله(١)، وعرفها القرطبي بقوله: الملة اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله(٢)، وقيل: لما كان نوع الإنسان محتاجا إلى اجتماع مع آخر من بني جنسه في إقامة معاشه، والاستعداد لمعاده؛وذلك الاجتماع يجب أن يكون على شكل يحصل به التمانع والتعاون حتى يحفظ بالتمانع ما هو أهله، ويحصل بالتعاون ما ليس له؛ فصورة الاجتماع على هذه الهيئة هي الملة(٣)، وَالْمِلَّةُ بِكَسْرِ الْمِيمِ الدِّينُ وَالشَّرِيعَةُ وَهِيَ مَجْمُوعُ عَقَائِدَ وَأَعْمَالٍ يَلْتَزِمُهَا طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ يَتَّفِقُونَ عليها وتَكُونُ جَامِعَةً لَهُمْ كَطَرِيقَةٍ يَتَّبِعُونَهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنْ أَمَلَّ الْكِتَابَ فَسُمِّيَتِ الشَّرِيعَةُ مِلَّةً لِأَنَّ الرَّسُولَ أَوْ وَاضِعَ الدِّينِ يُعَلِّمُهَا لِلنَّاسِ وَيُمْلِلُهَا عليهمْ كَمَا سُمِّيَتْ دِينًا بِاعْتِبَارِ قَبُولِ الْأُمَّةِ لَهَا وَطَاعَتِهِمْ وَانْقِيَادِهِمْ (٤).

ثالثاً: الْفرق بَين الدّين وَالْملَّة: لفظ "دَيَنَ" الدَّالُ وَالْيَاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعُهُ كُلُّهَا، وَهُوَ جِنْسٌ مِنَ الِانْقِيَادِ وَالذُّلِّ، فَالدِّينُ: الطَّاعَةُ، يُقَالُ دَانَ لَهُ يَدِينُ دِينًا، إِذَا أَصْحَبَ وَانْقَادَ وَطَاعَ، وَقَوْمٌ دِينٌ، أَيْ مُطِيعُونَ مُنْقَادُونَ(٥)، فالدِّين: وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالدِّين والملة متحدات بالذات، ومختلفان بالاعتبار؛فإن الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى ديناً، ومن حيث إنها تُجمع تسمى ملة، وقيل:الفرق بين الدين والملة، أن الدين منسوب إلى الله تعالى، والملة منسوبة إلى الرسول(٦).

يقول صاحب تاج العروس: الدِّينُ اسمٌ لمَا يُتَعَبَّدُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ بِهِ، والدِّيْنُ:المِلَّةُ؛يقالُ اعْتِباراً بالطّاعَةِ والانْقِيادِ للشَّرِيعَةِ، قالَ اللَّهُ تعالَي"إنَّ الدِّينَ عنْدَ اللَّه الإِسْلامُ"آل عمران ١٩(٧).

فالدِّينَ وَضْعٌ إِلَهِيٌّ لَا يَسْتَقِلُّ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ بِالْوُصُولِ إِلَيْهِ بِنَفْسِه، بَلْ يُعْرَفُ بِالْوَحْيِ، وَأَنَّهُ مَعَ هَذَا مُوَافِقٌ لِسُنَنِ الْفِطْرَةِ فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَإِعْدَادِهَا لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي عَالَمِ الْقُدُسِ، فَهُوَ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَضْعٌ إِلَهِيٌّ، يَتَرَتَّبُ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ وَالتَّرْكِ جَزَاءٌوَضْعِيٌّ يُحَدِّدُهُ اللهُ تَعَالَي فِي الدُّنْيَا

---

(١)المفردات للراغب الأصفهاني (٤٧١/١) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت/٥٠٢ هـ)، ت/ محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان

(٢)الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين القرطبي (ت/٦٧١هـ)، (٩٣/٢)، ت/ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، الطبعة: ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م

(٣)الملل والنحل أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني(ت/٥٤٨ هـ)، (٣٨/١)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤، ت/ محمد سيد كيلاني

(٤)تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت/١٣٩٣هـ)(٦٩٣/١)، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة النشر١٩٨٤هـ

(٥)مقاييس اللغة أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت/٣٩٥هـ)، (٣١٩/٢)، ت/عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

(٦)التعريفات على بن محمد بن على الزين الشريف الجرجاني(ت/٨١٦هـ)، (ص١٠٥)، ت/ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م

(٧)تاج العروس محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي(ت/١٢٠٥هـ)، (٥٦/٣٥)، ت/ مجموعة من المحققين، الناشر:دار الهداية

وَالْآخِرَةِ، وَهَذَا الْجَزَاءُ خَاصٌّ بِمَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ عَلَى وَجْهِهَا، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُوَافِقٌ لِسُنَنِ الْفِطْرَةِ يَتَرَتَّبُ عَلَى الِاهْتِدَاءِ بِهِ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ، وَعَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهُ تَدْسِيَتُهَا(١).

والملة هي اسم لما شرعه الله تعالي لعباده على لسان أنبيائه ليتوصلوا به إلي آجل ثوابه، والدين ملة، لكن الملةَ تُقال باعتبار دعا الله وإنزال كتبه، والدين باعتبار طاعة العباد له بإجابة دعائه والانقياد لأمره، والشيء الواحد قد يسمى باسمين على اعتبارين، ثم تقال الملةُ والدين لما لم يكن من قبل الله على التقييد(٢)، فالفرق بين الملة والدين أن الملة ما شرعه الله، والدين ما اعتقده الناس تقرباً إلى الله، فصار كل دين ملة وليس كل ملة ديناً(٣)

يقول صاحب الفروق اللغوية: أَن الْملَّة اسْم لجملة الشَّرِيعَة وَالدّين اسْم لما عليه كل وَاحِد من أَهلهَا أَلا ترى أَنه يُقَال فلَان حسن الدّين وَلَا يُقَال حسن الْملَّة وَإِنَّمَا يُقَال هُوَ من أهل الْملَّة وَيُقَال لخلاف الذِّمِّيّ الملي نسب إِلَى جملَة الشَّرِيعَة فَلَا يُقَال لَهُ ديني وَتقول ديني دين الْمَلَائِكَة وَلَا تَقول ملتي ملَّة الْمَلَائِكَة لِأَن الْملَّة اسْم للشرائع مَعَ الْإِقْرَار بِاللَّه وَالدّين مَا يذهب اليه الانسان ويعتقد أَنه يقربهُ إِلَى الله وَإِن لم يكن فِيهِ شرائع مثل دين أهل الشّرك وكل ملَّة دين وَلَيْسَ كل دين ملَّة واليهودية ملَّة لِأَن فِيهَا شرائع وَلَيْسَ الشّرك ملَّة وَإِذا اطلق الدّين فَهُوَ الطَّاعَة الْعَامَّة الَّتِي يجازي عليه بالثواب مثل قَوْله تَعَالَى"إِن الدّين عِنْد الله الْإِسْلَام" آل عمران ١٩، وَإِذا قيد اختلفت دلَالَته وَقد يُسمى كل وَاحِد من الدّين وَالْملَّة باسم الآخر فِي بعض الْمَوَاضِع لتقارب معنييهما، وَاصل الْملَّة فِي الْعَرَبيَّة المل وَهُوَ أَن يعدو الذِّئْب على شَيْء ضربا من الْعَدو فسميت الملة ملَّة لاستمرار أَهلهَا عليها وَقيل أَصْلهَا التّكْرَار من قَوْلك طَرِيق مليل إِذا تكَرر سلوكه حَتَّى تُوطأ وَمِنْه الْملَل وَهُوَ تكْرَار الشَّيْء على النفس حَتَّى تضجر وَقيل الْملَّة مَذْهَب جمَاعَة يحمي يعضهم لبَعض عِنْد الْأُمُور الْحَادِثَة واصلها من المليلة وَهِي ضرب من الْحمى وَمِنْه الْملَّة مَوضِع النَّار وَذَلِكَ أَنه إِذا دفن فِيهِ اللَّحْم وَغَيره تكَرر عليه الْحمى حَتَّى ينضج وأصل الدّين الطَّاعَة ودان النَّاس لملكهم أَي أطاعوه وَيجوز أَن يكون أَصله الْعَادة ثمَّ قيل للطاعة دين لِأَنَّهَا تعتاد وتوطن النَّفس عليها(٤)، فالملة كالدين وهو اسم لما شرع اللَّه تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار اللَّه، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا

---

(١)تفسير المنار محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا على خليفة القلموني الحسيني (ت/١٣٥٤هـ)، (٦١/٦)، الناشر:الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م

(٢)تفسير الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى(ت/٥٠٢هـ)، (٣٠٥/١) ، جزء١، المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق ودراسة، د/محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط١ ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م

(٣)النكت والعيون أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت/٤٥٠هـ)، (٢٣٩/٢)، ت/ السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان

(٤)الفروق اللغوية أبو هلال العسكري، (ص، ٢٢٠/٢٢١)

تضاف إلا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي تسند إليه نحو"فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ" آل عمران ٩٥ "وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي"يوسف ٣٨ ولا تكاد توجد مضافة إلى اللَّه ولا إلى آحاد أمة النبي صلّى اللَّه عليه وسلّم ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها، ولا يقال ملة اللَّه، ولا يقال ملتى وملة زيد كما يقال دين اللَّه ودين زيد، ولا يقال الصلاة ملة اللَّه(١).

فالدين يطلق على ما يكون عليه كل فرد من متبعي الملة الواحدة ، كما تصح إضافته إلي الله عز وجل باعتبار أنه مصدره الآمر به، وإلي النبي صلي الله عليه وسلم لظهوره منه، وكذلك تصح إضافته إلي المؤمن به لانقياده له، فيقال دين الله، ودين محمد النبي صلى الله عليه وسلم، وديني ودين فلان، لكن الملة تطلق على جملة الشرائع دون جزئياتها، فلا يقال الصوم ملة، أو ملة الصوم، لكن الدين يستعمل في جملة الشرائع وآحادها فيقال دين الإسلام، ويقال الصوم دين، فالملة تضاف إلي من أوحيت إليه ، والدين يضاف إلي من يعتنقه ويؤمن به، وعلى هذا فأحكام التوراة ملة وهي ملة موسي عليه السلام، لأنها مجموعة الشرائع التي حملها موسي عليه السلام ، فالملة لا تطلق إلا على جملة الشريعة بخلاف الدين، وبناء على هذا فدين الله واحد وهوه الإسلام، ولكل نبي ملة هي شريعة الله الخاصة بقومه، فالدين إذا أفرد أريد به الإسلام بخلاف الملة إذا أفردت فتكون بحسب السياق الذي جاءت فيه، وأيضاً الدين خضوع وانقياد وعبادة وتسليم، أما الملة فطريقة وسنة واتباع ، كذلك الدين ما فعله العباد عن أمره تعالي، والملة ما دعا الله عباده إلي فعله(٢)، فالدين هو طاعة وانقياد لله، ويُعبر عنه بالعبادة ويُعتبر وضعًا إلهيًا يتطلب قبول ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُستخدم لفظ "دين" للإشارة إلى الطاعة الفردية، بينما"الملة" تشير إلى مجموعة من الشرائع المنزلة على الأنبياء، فالدين منسوب لله، بينما الملة منسوبة للرسول، والدين يتعلق بالطاعة الفردية، في حين أن الملة تشمل كل الشرائع، فكل دين يُعتبر محاولة للتقرب إلى الله، حتى لو لم يتضمن شرائع واضحة، هذا الاختلاف يُبرز كيفية فهم العبادات والتشريعات في الإسلام، مما يُسهل التعرف على جوهر كل منهما.

(١)المفردات في غريب القرآن أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت/٥٠٢هـ)، (ص: ٧٧٤)، ت/ صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، الموسوعة القرآنية إبراهيم بن إسماعيل الأبياري(ت/١٤١٤هـ)، (٥٣٣/٨)، الناشر:مؤسسة سجل العرب، الطبعة١٤٠٥هـ، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، (٤٤٥/١٨)، إشراف ومراجعة:الدكتور هاشم محمد على بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م.

(٢)مدخل لدراسة الملل والنحل د/أحمد شوقي إبراهيم على، (ص٨٢٢، ٨٢١)

المطلب الثاني: مكانة إبراهيم عليه السلام في القرآن: نموذج للتوحيد الخالص.

ذكر لنا القرآن الكريم قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه حيث دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام وعبادة الله وحده، فأبوا محتجين بتمسكهم بدين آبائهم، لكن إبراهيم كسَّر أصنامهم باستثناء أكبرها، أثناء غيابهم "فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ"٥٨سورة الأنبياء، وعندما اكتشفوا ذلك قرروا حرقه في النار إلا أن مشيئة الله كما ذكر في القرآن جعلت من النار بردًا وسلاما عليه"قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ"٦٩ الأنبياء، واسمه إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَارَخَ بْنِ نَاحُورَ بْنِ سَارُوغَ بْنِ رَاغُوَ بْنِ فَالَغَ بْنِ عَابَرَ بْنِ شَالَخَ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عليه السَّلَامُ، واسْمَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ أُمَيْلَةُ، كَانَ إِبْرَاهِيمُ عليه السَّلَامُ يُكْنَى أَبَا الضِّيفَانِ(١)، وتساءل بعضهم:هل آزر هو أبو إبراهيم، أو أن والده هو تارخ؟، وقلت من قبل:إن الأبوة تمثل ما هو أصل للفرد؛فالأب، والجد، وجد الجد أب، وأطلقت الأبوة على المساوي للأب، مثل العم، وجاء مثل هذا في القرآن حين قال الحق سبحانه"أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ" البقرة١٣٣، وأرى أنه عمّه؛إذن فلا يصح أن نعتقد أن أبا إبراهيم هو آزر؛لأنه كان على هذا الوضع مشركاً، لكن كيف نفسر قول الحق سبحانه وتعالى"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ" نقول:إننا نأخذ اللغة، ونأخذ استعمالات القرآن في معنى الأبوة، والقرآن صريح في أن الأبوة كما تطلق على الوالد الحقيقي الذي ينحدر الولد من صلبه تطلق كذلك على أخي الوالد أو عمه(٢)، وحينئذ يجب القطع بأن والد إبراهيم ما كان من الكافرين إنما ذاك عمه(٣)، والذي عول عليه الجم الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام وادعوا أنه ليس في آباء النبي صلّى الله عليه وسلّم كافر أصلا(٤)، وإِبْرَاهِيم بالسُّرْيَانيَّة مَعْنَاهُ أَب رَحِيم وَالله سُبْحَانَهُ جعل إِبْرَاهِيم الْأَب الثَّالِث للْعَالم فَإِن أَبَانَا الأول آدم وَالْأَب الثَّانِي نوح وَأهل الأَرْض كلهم من ذُريَّته كَمَا قَالَ تَعَالَى"وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ"الصافات٧٧، فالأب الثَّالِث أَبُو الْآبَاء وعمود الْعَالم وَإِمَام الحنفاء الَّذِي اتَّخذهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلِيلًا وَجعل النُّبُوَّة وَالْكتاب فِي ذُريَّته ذَاك خَلِيل الرَّحْمَن وَشَيخ

(١)البداية والنهاية أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت/٧٧٤هـ) (٣٢٥/١)، ت/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧ م، سنة النشر١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م

(٢)تفسير الشعراوي محمد متولي الشعراوي (ت/١٤١٨هـ)، (٣٧٣٣/٦)، مطابع أخبار اليوم

(٣)الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون عبد الرحمن بن أبي بكرجلال الدين السيوطي(ت/٩١١هـ)(١٩٩/٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠ م، ط١

(٤)روح المعاني روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت/١٢٧٠هـ)، (١٨٤/٤)، ت/على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ

الْأَنْبِيَاء كَمَا سَمَّاهُ النَّبِي صلى الله عليه وَسلم بذل(١)، وَإِنَّمَا سُمِّيَ خَلِيلَ اللَّهِ لِشِدَّةِ مَحَبَّةِ ربه عز وجل له لما قام به مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا(٢)، وكُرِّرَ ذكره عليه السلام صراحةً أو إشارةً في نحو تسع وستين سورةً من سور القرآن الكريم، في خمس وعشرين سورةً مكيّة ومدنيّة، ومشاهد قصته موزعةٌ في ثنايا القرآن الكريم على مدى سبعة عشر جزءًا، وهذا يعني أنَّ ذكر إبراهيم عليه السلام حاضرٌ في الذهن لا يغيب عن ذاكرة المسلم أبدًا؛لأنه رمز من رموز التوحيد، ورمز من رموز الإسلام، وقدوة لجميع المسلمين، وقد سمى الله تعالى باسمه سورة كاملة، فالقرآن الكريم يذكر لنا نموذجا لموقف الإنسان الكامل المتحرر من التقليد الباطل للآباء، وذلك في شخصية إبراهيم عليه السلام قال تعالي"إِذ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ" أي: يثبتني على الهداية(٣)، وإبراهيم عليه السلام أبو العرب قاطبة، وأبو المسلمين كلهم، لأن حقه عليهم كحق الوالد، وأمرنا باتباع ملته جملةً لأنها داخلة في ملة محمد صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ(٤)، وكان إبراهيم عليه السلام مستجاب الدعوة عند ربّه، وكان نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه دعوة مستجابة من دعوات إبراهيم، حيث دعا إبراهيم ربّه بما حكاه القرآن الكريم عنه في قوله تعالى"رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عليهمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"١٢٩البقرة(٥)، وقد بين الله تعالى منزلة نبيه إبراهيم عليه السلام وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال"وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ"البقرة ١٣٠أى: ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماثله أحد في سفهه وسوء رأيه، ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التي رفعته إلى المنازل العلىا فقال تعالى"إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ"أى:اصطفي الله تعالى إبراهيم لأنه أمره بطاعته وإسلام وجهه إليه في كل حال فبادر إلى الامتثال وقال"أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ"أى:أخلصت ديني لله الذي فطر الخلق جميعا، كما حكى عنه القرآن

---

(١)مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت/٧٥١هـ)، (٣٤٣/٤)، بترقيم الشاملة آليا)، جمع وترتيب/العاجز الفقير:عبد الرحمن القماش(من علماء الأزهر الشريف)، عدد الأجزاء: ٢٢، الكتاب مرقم آليا، وهو غير مطبوع

(٢)تفسير ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت/٧٧٤هـ)، (٣٧٤/٢)، ت/ محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد على بيضون، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ

(٣)الأساس في التفسير سعيد حوّى(ت/١٤٠٩هـ)، (٥١٣٠/٩)، دار السلام، القاهرة، ط٦، ١٤٢٤هـ

(٤)الوسيط في تفسير القرآن المجيد أبو الحسن على بن أحمد بن محمد بن على الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت/٤٦٨هـ)(٢٨٢/٣)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ على محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٤م.

(٥)التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب(ت/ بعد١٣٩٠هـ)، (٧/ ١٩٧)، دار الفكر العربي، القاهرة

الكريم نحو هذا القول في قوله تعالى"إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماوات وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١)، وقد بَيَّنَ تَعَالَى مَا يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهِ فَقَالَ"مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا"آل عمران ٦٧ أَيْ مَائِلًا عَنْ كُلِّ مَا كَانَ عليه أَهْلُ عَصْرِهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ مُسْلِمًا وَجْهَهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَالطَّاعَةَ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمُ الْحُنَفَاءَ وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَهُمْ قُرَيْشٌ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ، وَهَذَا مِنَ الِاحْتِرَاسِ فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَدْعُونَ الْعَرَبَ بِالْحُنَفَاءِ، حَتَّى صَارَ الْحَنِيفُ عِنْدَهُمْ بِمَعْنَى الْوَثَنِيِّ الْمُشْرِكِ، فَلَمَّا وَافَقَهُمُ الْقُرْآنُ عَلَى إِطْلَاقِ لَفْظِ الْحَنِيفِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ مُسْتَعْمِلًا لَهُ بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ، احْتَرَسَ عَمَّا يُوهِمُهُ الْإِطْلَاقُ مِنْ إِرَادَةِ الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيِّ عِنْدَهُمْ، فَصَارَ مَعْنَى الْآيَةِ:أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْمُتَّفَقَ عَلَى إِجْلَالِهِ وَادِّعَاءِ دِينِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَلِ الثَّلَاثِ لَمْ يَكُنْ عَلَى مِلَّةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ، بَلْ كَانَ مَائِلًا عَنْ مِثْلِ مَا هُمْ عليه مِنَ الْوَثَنِيَّةِ وَالتَّقَالِيدِ مُسْلِمًا خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِكَوْنِهِ مُسْلِمًا أَنَّهُ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى الله عليهمَا وَعَلَى آلِهِمَا وَسَلَّمَ مِنَ الشَّرِيعَةِ بِالتَّفْصِيلِ، فَإِنَّهُ يَرُدُّ عَلَى هَذَا أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا كَانَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّهُ كَانَ مُتَحَقِّقًا بِمَعْنَى الْإِسْلَامِ الَّذِي يَدُلُّ عليه لَفْظُهُ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ(٢)، ولما ثبت أنّ إبراهيم عليه السلام هو الذي طلب من الله تعالى بعثة هذا الرسول في آخر الزمان ثبت أنه هو الذي تضرع إلى الله تعالى في تحصيل هذا المقصود، والعجب ممن أعظم مفاخره وفضائله الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام ثم إنه لا يؤمن بالرسول الذي هوم دعوة إبراهيم عليه الصَّلَاة وَالسَّلَام ومطلوبه بالتضرّع لا شك أن مما يستحق أن يتعجب منه(٣)، ولقد أراد إبراهيم الخير لذريته، فأوصاهم بالملة الحنيفية، وكذلك فعل يعقوب عليهما السلام، وقالا لهم:إن الله اختار لكم هذا الدين دين الإسلام، الذي لا يتقبل الله سواه، فاثبتوا على الإسلام لله، ولا تفارقوه، حتى لا تفاجأكم المنية، وأنتم على غير الدين الحق الذي اصطفاه لكم ربكم، وفي هذا فتح باب الأمل أمام المنحرف ليعود إلى الله ويعتصم بالدين، قبل الموت، فانظروا أيها اليهود:هل أنتم تتبعون آباءكم إبراهيم ويعقوب أو لا؟(٤)، فقد أصبح إبراهيم عليه السّلام رمزًا من رموز التوحيد في عصره، وفي كل العصور، قال تعالى"وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"الزخرف ٢٨وقد أوصى

(١)التفسير الوسيط أ.د/ محمد سيد طنطاوي، (٢٧٦/١).

(٢)تفسير القرآن الحكيم محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا على خليفة القلموني الحسيني (ت/١٣٥٤هـ)، (٢٧١/٣)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر١٩٩٠م

(٣)اللباب في علوم الكتاب أبو بن على بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت/٧٧٥هـ)، (٤٩٧/٢)، ت/ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط١ ، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م

(٤)التفسير المنير للزحيلي د وهبة بن مصطفي الزحيلي(٣١٨/١) دار الفكر، دمشق، ط١ ، ١٤٢٢هـ

إبراهيم بنيه وذريته بتلك الكلمة، فاستجابوا له وبلّغوها الأجيال من بعده، وظلت كلمة التوحيد"لا إله إلا الله" متصلة في عقبه وقام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون حتى كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل عليه السّلام وأشبَه أبنائه به محمد صلّى الله عليه وسلّم خاتم الرسل الذي دعا إلى التوحيد وإفراد العبادة لله عزّ وجل، وحارب الكفر والشرك بكل أنواعه وأشكاله، وتَحَقَّقَتْ إِمَامَتُهُ لِلنَّاسِ بِدَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ، وَكَانَتِ الْوَثَنِيَّةُ قَدْ عَمَّتْهُمْ وَأَحَاطَتْ بِهِمْ، فَقَامَ عَلَى عَهْدِهِ بِالْحَنِيفِيَّةِ وَهِيَ الْإِيمَانُ بِتَوْحِيدِ اللهِ وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَإِثْبَاتُ الرِّسَالَةِ، وَتَسَلْسَلَ ذَلِكَ فِي ذُرِّيَّتِهِ خَاصَّةً، فَلَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهَا دِينُ التَّوْحِيدِ؛وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللهُ الْإِسْلَامَ بِأَنَّهُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ(١)، ولم يبعث بعده نبيّ إلا كان مأمورا باتباع ملته، وكان من ذريته، كما قال تعالى"وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ"العنكبوت٢٧ قالَ أي إبراهيم"وَمِنْ ذُرِّيَّتِي"أي واجعل من ذريتي أئمة قالَ"لا يَنالُ"أي قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك، لكن"لا ينال عَهْدِي"أي الذي عهدته إليك بالإمامة "الظَّالِمِينَ"أي منهم، لأنهم نفوا أنفسهم عنك في أبوة الدين، ففي قوله"لا يَنالُ" إجابة خفية لدعوته عليه السلام، وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته بنيل عهد الإمامة، كما قال تعالى"وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ"العنكبوت٢٧وفي ذلك أتم ترغيب في التخلق بوفائه، لا سيما للذين دعوا قبلها إلى الوفاء بالعهد(٢)، وظن بعض من تكلم في العلم أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا، ولا ننكر أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء والعظة هل يلزم اتباعه أم لا؟ولا إشكال في لزوم ذلك، ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح (٣)، وقد كان الصراع بين الأنبياء والرسل وبين أقوامهم من أجل إبطال عبادة الشرك والوثنية قديم من عهد نوح عليه السلام، وكان للرسل مواقف متعددة وأساليب مختلفة في الدعوة لتوحيد الله تعالى، والتخلص من عبادة الأصنام والأوثان لأنها عبادة باطلة لا تتفق مع الكرامة الإنسانية، ولا مع مقتضيات العقل والفكر السديد، وكان لإبراهيم أبي الأنبياء موقفان مشهوران في هذا الصدد:موقف مع قومه حيث دمر لهم الأصنام، وموقف مع أبيه حيث ناقشه بالحسنى، فجاءت دعوته كدعوة

---

(١)تفسير المنار(٣٧٤/١)

(٢)محاسن التأويل محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت/ ١٣٣٢هـ)، (٣٩٠/١)، ت/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه، بيروت، ط١ – ١٤١٨هـ

(٣) تفسير القرطبي (١٦٤/١٦)، زاد المسير في علم التفسير جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي(ت/٥٩٧هـ)(٩٩/٤)، ت/عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ ، ١٤٢٢هـ

جميع الأنبياء عليهم السلام إلى عبادة الله:أي إفراده بالعبادة وتوحيده واتقاء عذابه بفعل أوامره وترك معاصيه(١).

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي:والسؤال: لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء؟، وذلك لأنه أبو الأنبياء، وله مكانته بين الأنبياء، والجميع يتمحكون فيه، حتى المشركون يقولون:نحن على دين إبراهيم، والنصارى قالوا عنه:إنه نصراني، واليهود قالوا:إنه يهودي، فجاءت الآية الكريمة تحلل شخصية إبراهيم عليه السلام، وتُوضِّح مواصفاتها، وتردُّ وتُبطِل مزاعمهم في إبراهيم عليه السلام، وهاكم مواصفاته"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً"النحل١٢٠فالمعنى إذن أن إبراهيم عليه السلام يقوم مقام أمة كاملة؛لأن الكمالات المطلقة لله وحده، والكمالات الموهوبة من الله لخلْقه في الرسل تُسمَّى كمالات بشرية موهوبة من الله، لذلك حين تتتبع تاريخ إبراهيم عليه السلام في كتاب الله تعالى تجد كل موقف من مواقفه يعطيك خَصْلة من خصال الخير، وصفة من صفات الكمال، فإذا جمعتَ هذه الصفات وجدتها لا توجد إلا في أمة بأسْرها، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير(٢)، وهاهنا سُؤَالٌ آخر وَهُوَ أَنَّهُ يُقَالُ: مَا الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ مَعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فِي بَابِ الصَّلَاةِ حَيْثُ يقال:اللهم صل على محمد وآل مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ؟ وَأَجَابُوا عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ، أَوَّلُهَا:أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ دَعَا لِمُحَمَّدٍ عليه السَّلَامُ حَيْثُ قَالَ"رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عليهمْ آيَاتِكَ"البقرة ١٢٩فَلَمَّا وَجَبَ لِلْخَلِيلِ عَلَى الْحَبِيبِ حَقٌّ دُعَائِهِ لَهُ، قَضَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ حَقَّهُ بِأَنْ أَجْرَى ذِكْرَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ أُمَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَثَانِيهَا:أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ سَأَلَ ذَلِكَ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ"وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ"الشُّعَرَاء٨٤ يَعْنِي أَبْقِ لِي ثَنَاءً حَسَنًا فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَأَجَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ وَقَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِ حَبِيبِهِ إِبْقَاءً لِلثَّنَاءِ الْحَسَنِ عليه فِي أُمَّتِهِ، وَثَالِثُهَا:أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَبَ الْمِلَّةِ لِقَوْلِهِ"مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ"الْحَجِّ ٧٨وَمُحَمَّدٌ كَانَ أَبَ الرَّحْمَةِ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ:النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أب لهم، وَرَابِعُهَا:أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ كَانَ مُنَادِيَ الشَّرِيعَةِ فِي الْحَجِّ" وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ"الْحَجِّ٢٧وَكَانَ مُحَمَّدٌ عليه السَّلَامُ مُنَادِيَ الدِّينِ"سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ" آلِ عِمْرَانَ١٩٣ فَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمَا فِي الذِّكْرِ الْجَمِيلِ(٣)، فإبراهيم عليه السلام هو أحد أعظم الأنبياء في الإسلام، ويُعتبر نموذجًا للتوحيد الخالص، تتجلى مكانته في القرآن من خلال قصصه ودعوته إلى عبادة الله وحده،

(١)التفسير الوسيط د وهبة بن مصطفي الزحيلي، (١٤٧٨/٢)، (٢١٨/٢٠).

(٢)تفسير الشيخ الشعراوي ، (٨٢٦٩/١٣).

(٣)مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت/٦٠٦هـ)، (٥٨/٤)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣: ١٤٢٠هـ

عندما دعا قومه لترك عبادة الأصنام، وكان قومه يتمسكون بتقاليد آبائهم، لكن إبـــراهيم أصـــر على أن الأصنام لا تملك القدرة على النفع أو الضر، فاستخدم عقلهم ليُظهر لهـــم عجـــز هـــذه الأصنام، حيث قام بتكسيرها ما عدا الأكبر منها، ليُبرز لهم مدى ســـخافة عبادتهـــا، فكانـــت مواجهة التحديات عندما اكتشف قومه ما فعله، وقرروا إحراقه، ولكن الله أنقذه من النار، حيث جعلها بردًا وسلامًا عليه، هذه المعجزة تعكس قوة إيمانه وحمايته من الله، وتُظهر كيف كـــان إبراهيم مُخلصًا في دعوته، فإبراهيم مثال على الثبات والإيمان، حيـــث يُظهـــر كيـــف يمكـــن للإنسان أن يتحدى الصعوبات من أجل تحقيق التوحيد، كما تُبرز مكانته فـــي القـــرآن كـــأب للأنبياء ومؤسس لمبادئ التوحيد.

المبحث الثاني: آيات ملّة إبراهيم عليه السلام: دروس في التوحيد والهداية الإلهية. ويشتمل على مطلبين.

المطلب الأول: اتباع ملّة إبراهيم عليه السلام وأثرها في بناء الهويـة الإسـلامية وتعزيـز الإيمان.

وضعت ملة إبراهيم عليه السلام الحجر الأساس لما ينبغي أن يكون عليه المسلم فـي عقيدتـه وعبادته، وفي طريقة تفكيره واستدلاله ومناظراته مع الآخر، وما ينبغي أن يكون عليـه فـي خضوعه واستسلامه لله، وفي آدابه وتعامله مع الناس بمختلـف أصـنافهم مـسلمين وغيـر مسلمين، هذه الشمولية من المقومات التي أعطت لملة إبراهيم تلك القيمة في أن تكون أحـسن الدّين، وأن تكون الدين القيم الذي ارتضاه الله لهذه الأمة المحمدية وألزمنـا سـبحانه وتعـالى باتباعها، وملة إبراهيم هي دين الإسلام الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلون منذ آدم عليه الـسلام إلى خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فأصل الدين واحد، بعث الله به جميع الأنبيـاء والمرسلين واتفقت دعوتهم إليه وتوحدت سبيلهم عليه، وفي اتباع ملة إبراهيم دعـوة للتمـسك بالتوحيد، وتجسيد لروح الإيمان الخالص، مما يجعلنا نرتقي بأرواحنا ونسمو بمبادئنا، لنكـون جزءًا من تلك المسيرة التي أرسى دعائمها هذا النبي الجليل، الذي يُعتبر مثالاً يحتذى بـه فـي كل زمان ومكان، فـــ إبراهيم عليه السلام رمزًا للتوحيد والإيمان، وقد أُمر المسلمون باتبـاع ملته كجزء من إيمانهم، فقد تجسدت في شخصيته معنى الإيمان الصادق، يحمـل فـي طياتـه عظمة التاريخ وصفحات مضيئة من مسيرة الإنسانية، فنحن المـسلمون، بـل وكـل البـشر، مأمورون بالتأسي باتباع ملته، كما جاء في قوله"قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْـرَاهِيمَ وَالَّـذِينَ مَعَهُ"الممتحنة٤وسبب ذلك والعلم عند الله تعالي أنه كان إمام الحنفاء، ولأنـه صـلي الله عليـه وسلم وَأُمَتُهُ أُمِرُوا باتباع ملته التي هي الحنفية، وهي أكثر وصف وُصِفَ بِهِ الخليل في القرآن الكريم قال تعالي"ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"النَّحْـل١٢٣، وقوله"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عليها"الـروم٣٠، أي:فـاتبع الـدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، التي هداك الله لها، وأكملها لك، وهو دين الفطـرة السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه خلقهم على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره، وكـن بذلك مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، وهذا أمر للنبي صلّى الله عليـه وسـلّم وأمـر لأمته أيضا(١)، والمراد من اتباع ملة إبراهيم:اتباع ملة الإسلام، فإنما هى ملة إِبـراهيم عليـه

(١)التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د/ وهبة بن مصطفي الزحيلي(٨٢/٢١)، دار الفكر المعاصر ، دمشق، ط٢ ، ١٤١٨هـ

السلام في العقائد وأصول الأحكام، فمن اتبعها فهو متبع للإسلام الذي جاءَت به ملة إبراهيم، ومن اتبع سواها فليس له من اتباع ملة إبراهيم نصيب(١)، وَإِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّ فِي اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ اتِّبَاعَهُ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلّم(٢)، وهذا يوجب أن كل ما ثبت من ملة إبراهيم عليه السلام فعلينا اتباعه، فإن قيل فواجب أن تكون شريعة النبي صلى الله عليه وسلم هي شريعة إبراهيم عليه السلام قيل له إن ملة إبراهيم داخلة في ملة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن في ملة نبينا صلى الله عليه وسلم زيادة على ملة إبراهيم فوجب من أجل ذلك اتباع ملة إبراهيم إذ كانت داخلة في ملة النبي صلى الله عليه وسلم فكأن متبع ملة النبي صلى الله عليه وسلم متبعا لملة إبراهيم(٣)، وقد أَمَرَ اللهُ النَّبِيَّ بِأَنْ يَدْعُوَ إِلَى اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فَقَالَ "قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ" البقرة ١٣٦، أَيْ لَا تَكُنْ دَعْوَتُكُمْ إِلَى شَيْءٍ خَاصٍّ بِكُمْ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ سَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ، بَلِ انْظُرُوا إِلَى جِهَةِ الْجَمْعِ وَالِاتِّفَاقِ، وَادْعُوا إِلَى أَصْلِ الدِّينِ وَرُوحِهِ الَّذِي لَا خِلَافَ فِيهِ وَلَا نِزَاعَ، وَهُوَ التَّسْلِيمُ بِنُبُوَّةِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ(٤)، فقد وصى إبراهيم ويعقوب كلاهما أبناءه بملته، واتبعه من بعدهم موسى وعيسى والنبيون الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، فهم جميعا على ملة واحدة جامعة، وهي ملة إبراهيم التي هي التوحيد والتنزيه، والاستقرار على الحق، والحنيفية السمحة، وقد أمر الله تعالى المؤمنين، ولم يكن أمره إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحده، بل كان أمره له ولمن اتبعه، وفيه بيان أن إيمانهم هو إيمان إبراهيم، وبنيه، ويعقوب وبنيه، والنبيين أجمعين، فهو إيمان عام بالرسالة الإلهية لَا فرق بين رسول ورسول(٥)، ولَم يَأْمر الله سُبْحَانَهُ رَسُول صلى الله عليه وَسلم أَن يتبع ملَّة أحد من الْأَنْبِيَاء غَيره فَقَالَ تَعَالَى"ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ من الْمُشْرِكِينَ"النَّحْل١٢٣وأمر أمته بذلك فَقَالَ تَعَالَى"هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ علىكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ"الْحَج ٧٨ وملة مَنْصُوب على إِضْمَار فعل أَي اتبعُوا والزموا ملَّة أبيكم وَدلّ على الْمَحْذُوف مَا تقدم من قَوْله"وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ"الْحَج ٧٨وَالْملَّة لِإِبْرَاهِيم فَإِنَّهُ صَاحب الْملَّة وَهِي التَّوْحِيد

(١)التفسير الوسيط مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (٢/٩٢٠)، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١، (١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م)، (١٤١٤هـ = ١٩٩٣م)

(٢)تفسير البغوي معالم التنزيل في تفسير القرآن محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت/٥١٠هـ)، (١/٤٧١)، ت/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ

(٣)احكام القرآن للجصاص أحمد بن على أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت/٣٧٠هـ)، (٣/٢٦٩)، ت/ عبد السلام محمد على شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ/١٩٩٤ م

(٤)تفسير القرآن الحكيم محمد رشيد بن على رضا (١/٣٩٧)

(٥)زهرة التفاسير محمد بن أحمد بن مصطفي بن أحمد المعروف بأبي زهرة(ت/١٣٩٤هـ)، (١/٤٢٣)، دار الفكر العربي.

وَعبادَة الله تَعَالَى وَحده لَا شريك لَهُ ومحبته فَوق كل محبَّة(١)، فملَّةُإبْرَاهِيمَ التَّوْحِيدُ، وَدِينُ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ:مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ:هِيَ شَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِطْرَةُ الْإِسْلَامِ:هِيَ مَا فَطَرَ عليه عِبَادَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ عُبُودِيَّةً وَذُلًّا وَانْقِيادًا وَإِنَابَةً، فَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ، الَّذِي مَنْ رَغِبَ عَنْهُ فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ، قَالَ تَعَالَى"وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ"إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"الْبَقَرَة١٣١، ١٣٢(٢)، قال تعالي"مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ"اي: الْزَمُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، وَهِيَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ، الَّذِي هُوَ مَعْنَى الْإِسْلَامِ، وَعُلِمَ مِنْهُ أَنَّ لَفْظَ الْمِلَّةِ يُرَادُ بِهِ أَصْلُ الدِّينِ وَجَوْهَرُهُ، دُونَ مَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ الشَّرَائِعِ وَتَفَاصِيلِ الْأَحْكَامِ، فملة إبراهيم: أي شريعة التوحيد(٣)، فشرع إبراهيم عليه السلام وملته داخلان في شرع محمد صلى الله عليه وسلم وملته، مع زيادات كثيرة حسنة خص الله بها محمدًا صلى الله عليه وسلم، فمن اتبع ملة محمَّد صلى الله عليه وسلم فقد اتبع ملة إبراهيم؛لأنها داخلة في ملة محمَّد صلى الله عليه وسلم، وإذا ثبت هذا وأن شرعه كان مقبولًا عند الأمم، وأن شرع محمَّد صلى الله عليه وسلم وملته هو شرع إبراهيم وملته لزم الخلق عمومًا الدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم، وقبول شرعه وملته (٤)

قال ابن كثير: وليس يلزم من كونه صلّى الله عليه وسلّم أمر باتباع ملّة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها، لأنه عليه السلام قام بها قياما عظيما، وأكملت له إكمالا تامّا، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام(٥)، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم، التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام، "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ"آل عمران، ٨٥(٦)، وقد ذكر الله في كتابه سيرةً وأخبارًا كثيرةً من سيرة إبراهيم عليه السلام فيها لنا الأسوة بالأنبياء عمومًا، وبه على وجه الخصوص؛فإن الله أمر نبينا وأمرنا باتباع ملته، وهي ما كان عليه من

(١)مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت/٧٥١ هـ)، (٣٤٣/٤)، بترقيم الشاملة آليا)، جمع وترتيب/ العاجز الفقير عبد الرحمن القماش(من علماء الأزهر الشريف)، عدد الأجزاء ٢٢، الكتاب مرقم آليا، وهو غير مطبوع

(٢)شرح العقيدة الطحاوية صدر الدين محمد بن علاء الدين على بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (ت/٧٩٢هـ)، (ص٩٧)، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة(عن مطبوعة المكتب الإسلامي)الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م

(٣) تفسير المنار (٣٤٦/٦)، تفسير الشعراوي(١٣/ ٨٢٧٧).

(٤) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٣٧٠/٦)

(٥) الأساس في التفسير (١٨٠٢/٣)

(٦) محاسن التأويل القاسمي (١٥٩/٣)

عقائد وأخلاق وأعمالٍ قاصرة ومتعدية، فقد آتاه الله رشده وعلَّمه الحكمة منذ كان صغيرًا، وأراه ملكوت السماوات والأرض، ولهذا كان أعظم الناس يقينًا وعلمًا وقوةً في دين الله ورحمته بالعباد، وهدى الله هو ما عليه المصطفي صلّى الله عليه وسلّم من التوحيد والإسلام الذي هو ملة إبراهيم عليه السلام وبطلان ادعاء أهل الكتاب أنهم يتبعون دين إبراهيم، وبيان صحة نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم إذ هو دعوة إبراهيم الخليل(١)، ويُسأل ما في اتباع ملة إبراهيم من الحسن، دون اتباع ملة موسى وعيسى وغيرهما من النبيين؟والجواب:أن إبراهيم عليه السلام قد رضي به جميع الأمم، وكان يدعو إلى الحنيفية لا اليهودية ولا النصرانية ولا الوثنية، فهو محق في دعائه إليها، وكل من استجاب له بإذن الله فيها فقد جمع من المعنى المرغوب ما ليس لغيره(٢)، فالنهج القويم الذي يرضى الله عنه ولا نهج خيرا منه هو إسلام النفس لله عزوجل ونبذ سواه والعمل الصالح في اتباع ملّة الإسلام المستقيمة التي هي ملة إبراهيم عليه السلام، وتقرير كون كل امرئ ملاقيا جزاء عمله بدون ظلم خيرا كان أو سوءا مما تكرر في القرآن كثيرا بل ومما دار عليه كل هدف قرآني بالنسبة لحياة الإنسان في الدنيا والآخرة، ولقد كان كثير من العرب والكتابيين ينتسبون إلى إبراهيم فاستحكمت الآيات في الجميع فالانتساب إلى إبراهيم لا يفيد إلا باتباع ملته، وكل دعوى خلاف ذلك باطلة، وهذا المعنى مما تضمنه وهدف إليه كثير مما جاء في قصص إبراهيم عليه السلام(٣)، إن مضمون الرسالات الإلهية الاعتقادية والأخلاقية هو واحد غير مختلف، فإن جميع الأنبياء والرسل دعوا إلى عبادة الله وحده دون إشراك، وإلى نبذ الوثنية وعبادة الأصنام، وإلى الأخلاق الكريمة كالصدق والإحسان والوفاء بالعهد، وكان إبراهيم الخليل أبو الأنبياء عليه السلام شديد الدعوة إلى هذه الأصول المشتركة، فجاء القرآن يلزم نبينا صلّى الله عليه وسلّم باتباع ملته والاقتداء به، لاتصافه بصفات تسع قال تعالى""إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ"النحل ١٢١–١٢٤، وبعد تعداد هذه الصفات التسع لإبراهيم الخليل، عليه السلام، أمر الله نبيه محمدا صلّى الله عليه وسلّم باتباعه، لكماله وصحة توحيده وطريقته، وبعده عن

(١)التفسير الواضح الحجازي، محمد محمود، (٧٣/١)، دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٣هـ

(٢)إعراب القرآن للأصبهاني ط–أخرى أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل القرشي الأصبهاني الْمُلقَّب (قَوَام السُّنَّة)(ت/٥٣٥هـ)، قدمت له ووثقت نصوصه: الدكتورة فائزة بنت عمر المؤيد(ص٩٢)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط١٤١٥، ١هـ، ١٩٩٥م

(٣)التفسير الحديث[مرتب حسب ترتيب النزول]، دروزة محمد عزت، (٢٤٩/٨)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١٣٨٣هـ

الشرك، وكونه لم يكن من المشركين، فاتباع ملة إبراهيم إنما هو في أصول الدعوة، أي الدعوة إلى توحيد الله، وفضائل الأخلاق والأعمال، والوحي إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم باتباع ملة إبراهيم:من جملة الحسنة التي آتاها الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام(١)، فكل هذه أوامر ربانية واضحة حازمة حاسمة لا تقبل التأويل ولا التحريف باتباع ملة إبراهيم عليه السلام التي هي التوحيد، وأنها هي الدين الوحيد الذي يقبله الله تعالى من عباده، وأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد أمر بالالتزام بها والدعوة إليها، فالتزم بها ودعا إليها وقاتل المشركين عليها، فكانت هي الحق، وكان ما عداها باطلا، وبهذا تعتبر ملّة إبراهيم عليه السلام أساسًا لعقيدة المسلم وعبادته، حيث تحدد طريقة تفكيره وتعامله مع الآخرين، وتعكس الشمولية التي تتميز بها ملّة إبراهيم القيم الإسلامية، مما يجعلها الدين القيم الذي ارتضاه الله لهذه الأمة، وقد ألزم الله المسلمين باتباع هذه الملّة، مما يعزز هويتهم الإسلامية وإيمانهم.

المطلب الثاني: أبعاد التوحيد في آيات ملة إبراهيم عليه السلام:دعوة للفطرة واليقين

أظهرت آيات ملة إبراهيم عليه السلام أن دين الأنبياء جميعًا هو التوحيد الخالص والدين الحنيف من لدن إبراهيم عليه السّلام حتى محمد صلّى الله عليه وسلّم، وهذا يعمق ثقة المسلمين بدينهم أنه أحسن دين، قال تعالى"مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ "الحج:٧٨، وقال تعالى"وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"النساء١٢٥، وقال تعالى"ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ"يوسف:٤٠، وبيّنت أيضًا أن أي انحراف عن التوحيد الخالص يفقد الإنسان صلته بالأنبياء حتى لو كانوا حقيقة من صلبه فهذا إبراهيم عليه السّلام يتبرأ من أبيه عندما انحرف عن دينه التوحيد"فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ" التوبة:١١٤، فكيف بالمنحرفين عن دين إبراهيم عليه السّلام في الأجيال اللاحقة؟، وهكذا تكون تعاليم ملة إبراهيم عليه السّلام ردًّا على كل منحرف عن دين التوحيد كالعرب المشركين واليهود والنصارى الذين انحرفوا عن رسالة موسى وعيسى عليهما السلام، واستغلّوا الدين في إضفاء شيء من القدسية عليهم لقيادة البشرية، ولقد أثبتت آيات ملة إبراهيم عليه السّلام أن هؤلاء ليسوا على دين إبراهيم ولا من أتباعه أو ورَثته، وليس لهم أي صلة بإبراهيم عليه السلام لأن الوراثة الحقيقية لإبراهيم هي الوراثة الإيمانية فقط، قال تعالى"إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا"آل عمران:٦٨، فمن كانتْ مِلّتُهُ الحنيفيةُ والتوحيدُ، فهو أولى بأن يتبّع ممن مِلَّتُهُ اليهوديةُ والنصرانيَّةُ، فإن الحنيفيةَ والتوحيدَ هي دينُ

(١)التفسير الوسيط للزحيلي، د/وهبة بن مصطفي الزحيلي، (١٣١٥/٢).

جميع الأنبياءِ، الذي لا يقبلُ اللهُ من أحدٍ ديناً سواه، وهو الفطرةُ التي فَطرَ اللهُ عليهـا عبـادهُ، فمن كان عليها فهو المهتدي(١)، ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم، ولكـن هـذه الكلمة لم تستقر في الأرض إلا من بعد إبراهيم، عرفتها على لـسان نـوح وهـود وصـالح وإدريس، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة، ويعيش بها ولها، فلما عرفتها على لسان إبراهيم عليه السلام ظلت متصلة في أعقابه، وقام عليها من بعده رسـل متصلون لا ينقطعون، حتى كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل، وأشبه أبنائه به محمـد صـلّى الله عليه وسلم خاتم الرسل، وقائل كلمة التوحيد في صورتها الأخيرة الكاملة الـشاملة، التـي تجعل الحياة كلها تدور حول هذه الكلمة، وتجعل لها أثرا فـي كـل نـشاط للإنـسان وكـل تصور(٢)، ودعوة إبراهيم الخليل إلى الوحدانية الخالصة أول دعوة عامة للتوحيـد بـالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد في تاريخ البشرية، وهي عربية لغة ووطنا، كما جاءت بعدها رسـالة محمد عليه الصلاة والسلام النبي العظيم خاتم الأنبياء، وقد نزلت عليه باللغة العربية أيضا؛لأن اللغة التي كان يتكلم بها إبراهيم الخليل والآراميون معه في تلك الأزمان هي اللغة العربية الأم التي يرجع وطنها الأصلي إلى الجزيرة العربية، وكانت لغة واحدة تتكلم بها جميـع القبائـل، وذلك قبل أن تتفرق هذه اللغة الأصلية إلى لهجات مختلفة ضمن كتلة اللغات السامية، وما كان الإسلام إلا ملة إبراهيم حنيفاً(٣)، وقد ترك إبراهيم عليه السلام في ذريتـه أسـاس التوحيـد، وهي كلمة لا إله إلا الله كما قال تعالى"وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ"الزخـرف ٢٨، وَجَعَلَها يَعْنِي هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِـهِ أي فِـي ذُرِّيَّتِهِ قَالَ قَتَادَةُ:لَا يَزَالُ فِي ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَيُوَحِّدُهُ(٤). فالتوحيد والإخلاص في عقبه، ولا يزال من ولد إبراهيم صلى الله عليه وسلم من يعبد الله عز وجل إلى يوم القيامـة(٥)، وبعـد دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه، هددوه بآلهتهم وأن تمسه بسوء، ولكنه عليه السلام وضّح لهم أن النفع والضر بقضاء الله وقدره، وأنه لا يخاف من آلهتهم ولأنها لا تملك نفعـاً ولا ضـراً، قال تعالى"وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَـشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ"الأنعام٨٠ قال هذا لما خوفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه أي: إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا

(١)بدائع الفوائد ط عالم الفوائد أَبو عَبْدِ اللَّهِ محمد بنِ أبي بكر بْنِ أَيُّوب ابْن قَيِّم الجَوْزِيَّةِ(٦٩١، ٧٥١)، (١٥٨٠/٤)، ت/على بن محمّد العمران (إشراف، بَكر بن عَبدِ اللَّهِ أَبُو زَيْـد)، دارعالم الفوائد، مكة، ط١، ١٤٢٥هـ

(٢)الأساس في التفسير(٥١٣١/٩).

(٣)تاريخ الفكر الديني الجاهلي محمد إبراهيم الفيومي(ت/١٤٢٧هـ)، (ص٣٩٤)، دار الفكر العربي، ط٤١٤١٥هـ، ١٩٩٤

(٤)معالم التنزيل في تفسير القرآن أبو محمد الحسين بن الفراء البغوي(١٥٨/٤).

(٥)معاني القرآن أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد(ت/٣٣٨ه)، (٣٤٩/٦)، ت/ محمد على الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١

ينفع، وإنما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضرر، وَالْمَعْنَى: عَلَى نَفْيِ حُصُولِ ضَرَرٍ مِنْ مَعْبُودَاتِهِمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَإِثْبَاتُ الضَّرَرِ وَالنَّفْعِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَصُدُورِهِمَا حَسْبَ مَشِيئَتِهِ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ"وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً"أَيْ إِنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا شَاءَ الْخَيْرَ كَانَ حَسَبَ مَشِيئَتِهِ، وَإِذَا شَاءَ إِنْزَالَ شَرٍّ بِي كَانَ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ(١)، وهذا يتضمن كمال الإثبات للقدر والتوحيد بأوجز لفظ وأخصره فإن الذي يستعاذ منه من الشر وأسبابه هو واقع بقضاء الله تعالى وقدره وهو المنفرد بخلقه وتقديره وتكوينه فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن(٢)، ولقد اتضح لإبراهيم عليه السلام أن دعوته لقومه لابد وأن ترتقي إلى مستوى أعلى من الحوار ، فكانت خطته عليه السلام كما حكي الله تعالى في الآيات تقتضي أن يؤكد لقومه بطلان ما يعتقدون في آلهتهم أنها تنفع وتضر دون أن يتعرض لقومه بالشتم، أو يؤذ أحداً منهم فحطم أصنامهم التي صنعوها بأيديهم، ليؤكد لهم أنها لا تنفع ولا تضر، وبالفعل تحقق لإبراهيم عليه السلام ما أراد ونطق القوم بكلمة الحق"فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ"الأنبياء٦٤، وأمام هذا الضعف الذي أصاب قومه، استغل إبراهيم عليه السلام الموقف ، فقال مهاجماً في عزة وقوة"قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"الأنبياء٦٦، ٦٧(٣) فإبراهيم عليه السلام لَمْ يَكْتَفِ بِالْمُحَاجَّةِ بِاللِّسَانِ بَلْ كَسَّرَ أَصْنَامَهُمْ فِعْلَ وَاثِقٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، مُوَطِّنٍ نَفْسَهُ عَلَى مُقَاسَاةِ الْمَكْرُوهِ فِي الذَّبِّ عَنِ الدِّينِ"وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ"(٤)، ولعل إبراهيم عليه السلام قد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها، وليحملهم على التفكير في أن الذي يجب أن يكون معبودا، إنما هو الله الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء(٥)، ومن الطبيعي أن يغضب قوم إبراهيم عبدة الأصنام على ما حدث من كارثة تكسير الأصنام التي يعتقدون أنها الآلهة، ويعبدونها من دون الله، فجاءوا إلى إبراهيم الخليل عليه السلام حاقدين غائظين، ليسألوه عن حقيقة الأمر، ولإنكار ما حدث، والانتقام مما وقع، "قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ"وهذا موقف في غاية الحرج

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن على ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت/١٣٠٧هـ)، (١٧٩/٤)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه:خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا، بَيروت، عام النشر١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، فتح القدير للشوكاني محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني(ت/١٢٥٠هـ)(١٥٣/٢)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت/٧٥١هـ) (ص٢٧٢)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

(٣) مفهوم ملة إبراهيم عليه السلام ومقوماتها في القرآن الكريم، محمد أكرتن (ص٩٣٩)، جامعة المالك السعدي ، المغرب، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـــ تطون

(٤)تفسير القرطبي(٢٩٧/١١).

(٥)التفسير الوسيط لطنطاوي (٢٢٣/٩)

والضيق من قوم عتاة، لكنهم سذّج بسطاء، وجهلة حمقى(١)، فقد كان إبراهيم عليه السلام من الداعين إلى الفطرة التي تُقرها النفوس، حيث حاور قومه بخطاب يتوافق مع قناعاتهم، ودعاهم إلى توحيد الله في العبادة، واستند إلى حقيقة وجود الخالق كأقوى دليل، مُظهرًا أن عبادة الكواكب الزائفة لا تستحق التأليه لأنها متحركة وتحتاج إلى خالق، أكد على أن الإسلام هو دين الفطرة، مُبديًا استعداده للابتعاد عن الشرك ، كما في قوله"قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"الأنعام٧٨، ٧٩، فالآية تدل على أن الله تعالي بخلقه وفطره للسماوات والأرض ينبغي أن يخص وحده تعالي بالربوبية، وإنكار ذلك أو جعله لأحد غيره إنما هو شرك، وخروج عن الحنفية التي هي دين الإسلام، وهي أيضاً خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ، أَنَّهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ وَعَرَفَهُ، شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَأَظْهَرَ خِلَافَ قَوْمِهِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَلَمْ يَسْتَوْحِشْ مِنْ قِيلِ الْحَقِّ وَالثَّبَاتِ عليه، مَعَ خِلَافِ جَمِيعِ قَوْمِهِ لِقَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِمْ إِيَّاهُ عليه، وَقَالَ لَهُمْ:يَا قَوْمِ، إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ فِي عِبَادَتِهِ مِنْ آلِهَتِكُمْ وَأَصْنَامِكُمْ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي فِي عِبَادَتِي إِلَى الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، الدَّائِمِ الَّذِي يَبْقَى وَلَا يَفْنَى، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، لَا إِلَى الَّذِي يَفْنَى وَلَا يَبْقَى، وَيَزُولُ وَلَا يَدُومُ، وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَنَّ تَوْجِيهَهُ وَجْهَهُ لِعِبَادَتِهِ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي ذَلِكَ لِرَبِّهِ عَلَى مَا يَجِبُ مِنَ التَّوْحِيدِ(٢)، وَقَدْ عَزْمُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى أَنْ يَدَعَ إِسْمَاعِيلَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ دَاعِيًا إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ، وَإِسْلَامِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، وَيَرْجِعَ هُوَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ لِهَذِهِ الذُّرِّيَّةِ بِأَنْ يَبْعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى دُعَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَوَلَدِهِ عليهمَا السَّلَامُ، وَجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ، وَبَعَثَ فِيهَا وَمِنْهَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٣)، والرسل أيضاً صلوات الله عليهم وسلامه، بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها قال تعالي"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عليها لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"الروم٣٠، أي فَسَدِّدْ وَجْهَكَ وَاسْتَمِرَّ على الدين الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي هَدَاكَ اللَّهُ لَهَا وَكَمَّلَهَا لَكَ غَايَةَ الْكَمَالِ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَازِمْ فِطْرَتَكَ السَّلِيمَةَ الَّتِي

(١) التفسير الوسيط للزحيلي (١٥٩٢/٢).

(٢)تفسير القرآن العظيم بن كثير، (٢٨٢/٦)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري(ت/٣١٠ه)، (٤٨٧/١١)، ت.د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م

(٣)تفسير القرآن الحكيم محمد رشيد بن على رضا(ت/١٣٥٤هـ)(٣٨٧/١)

فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ عليها، فَإِنَّهُ تَعَالَى فطَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَأَنَّهُ لَا إِلَـهَ غَيْـرَهُ(١)، إن ملة إبراهيم عليه السلام تُعبر عن أصالة التوحيد وأهميته في بناء العقيـدة الإسـلامية، فهـي ليست مجرد كلمات تُقال، بل هي سلوك يُعبر عن الإيمان الخالص بالله، ويعكس التزام الفـرد بعبادة الله وحده، مما يضمن له السعادة في الدنيا والآخرة، وكما أن التوحيد يعـزز الهويـة الإسلامية، إذ يجمع المسلمين على عبادة الله وحده، مما يخلق شعورًا بالوحدة والانتمـاء بـين المؤمنين.

(١)جامع البيان عن تأويل آي القرآن محمد بن جرير الطبري (ت/٣١٠هـ)، (٣٦٢/٩)

المبحث الثالث: الدراسة التفسيرية والبلاغية لآيات ملة إبراهيم عليه السلام في القرآن.

تُعدّ ملة إبراهيم عليه السلام واحدة من أهم الركائز التي تأسست عليها دعائم التوحيد في الإسلام، فقد وردت آيات عديدة في القرآن الكريم تبرز مكانته وتكشف عن عمق رسالته في دعوة الإنسانية إلى عبادة الله الواحد، وتسعى هذه الدراسة إلى استكشاف الجوانب التفسيرية والبلاغية لآيات ملة إبراهيم، مُركّزةً على كيفية تصوير القرآن الكريم لهذه الشخصية المحورية ودورها في نشر قيم التوحيد، وسنستعرض المعاني العميقة، والبلاغة الفائقة، والدروس المستفادة من هذه الآيات، مما يُعزز فهمنا للتوحيد كجوهر إيماني يسير عبر الزمن ويبقى صامداً في وجه التحديات، وقد ورد الأمر في القرآن الكريم باتباع ملة إبراهيم عليه السلام في ثمانية مواضع والتي هي موضع الدراسة.

وترتيب هذه الآيات التي ذكرت ملة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم حسب ترتيب المصحف هي:

الآية الأولي:"وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ"سورة البقرة١٣٠

وسبب نزول هذة الآية الكريمة أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ دَعَا ابْنَيْ أَخِيهِ سَلَمَةَ وَمُهَاجِرًا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُمَا: قَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي التَّوْرَاةِ: إِنِّي بَاعِثٌ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ نَبِيًّا اسْمُهُ أَحْمَدُ فَمَنْ آمَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَى وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ، فَأَسْلَمَ سَلَمَةُ وَأَبَى مُهَاجِرٌ أَنْ يُسْلِمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ"وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ"، أَيْ: يَتْرُكُ دِينَهُ وَشَرِيعَتَهُ، يُقَالُ: رَغِبَ فِي الشَّيْءِ إِذَا أَرَادَهُ، وَرَغِبَ عَنْهُ إِذَا تَرَكَهُ، وَقَوْلُهُ"وَمَنْ" لفظة استفهام ومعناه التَّقْرِيعُ وَالتَّوْبِيخُ، يَعْنِي:مَا يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ(١)

وهذا إنكارٌ واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغبُ عن ملته التي هي الحقُّ الصريحُ والدين الصحيحُ أي لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء"إلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ" أي أذلّها واستمهَنها واستخَفّ بها وقيل خسر نفسه وقيل أوبقَ أو أهلكَ أو جهّلَ نفسَه(٢)

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن ذكر الله سبحانه أنه ابتلى إبراهيم بكلمات فأتمهن، وأنه عهد إليه ببناء البيت وتطهيره للعبادة، أردف ذلك ببيان أن ملة إبراهيم وهي التوحيد وإسلام القلب لله، لا يصح لأحد التحول عنها، وبها وصى يعقوب بنيه، ووصى بها من قبله إبراهيم، فلا يرغب

(١)تفسير البغوي(١٦٩/١)، فتح الرحمن في تفسير القرآن مجير الدين بن محمد العلىمي المقدسي الحنبلي (ت/٩٢٧ هـ)، (٢٠٠/١)، اعتنى به تحقيقا وضبطا وتخريجا: نور الدين طالب، دار النوادر(إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإسلاميّة، إدَارَةُ الشُؤُونِ الإسلَاميّةِ)، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي (ت/٩٨٢هـ)، (١٦٢/١)، دار إحياء التراث العربي، بيروت

أحد عن ملة إبراهيم ودينه إلا شخص أذل نفسه واستخف بها، لأن من يترك الخير والحق والهدى فقد أمتهن نفسه وأذلها، ولقد اصطفي الله إبراهيم في الدنيا، فجعله أبا الأنبياء، وجعله في الآخرة من المشهود لهم بالصلاح والاستقامة وإرشاد الناس للعمل بملته، وهذه بشارة لإبراهيم بصلاح حاله في الآخرة ووعد له بذلك(١)، وقيل لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشركين، وأكّد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي، خفيف العقل، متبع لخطوات الشيطان(٢)، وحقيقته أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من جهل فلم يفكر فيها، فيستدل بما يجده فيها من آثار الصنعة على وحدانية الله تعالى وعلى حكمته، ويستدل بذلك على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر النفس تأكيد كما يقال هذا الأمر نفسه، والمقصود منه المبالغة في سفهه، ثم إنه تعالى لما حكم بسفاهة من رغب عن ملة إبراهيم عليه السلام بين السبب فقال"وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيا"، والمراد به أنا إذا اخترناه للرسالة من دون سائر الخليقة، وعرفناه الملة التي هي جامعة للتوحيد والعدل والشرائع والإمامة الباقية إلى قيام الساعة ثم أضيف إليه حكم الله تعالى فشرفه الله بهذا اللقب الذي فيه نهاية الجلالة لمن نالها من ملك من ملوك البشر فكيف من نالها من ملك الملوك والشرائع فليحقق كل ذي لب وعقل أن الراغب عن ملته فهو سفيه، ثم بين أنه في الآخرة عظيم المنزلة ليرغب في مثل طريقته لينال مثل تلك المنزلة، وقيل في الآية تقديم وتأخير وتقديره: ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين، وإذا صح الكلام من غير تقديم وتأخير كان أولى(٣)، وفي هذة الآية ذَكَرَ الله تَعَالَى كَرَامَةَ إِبْرَاهِيمَ فِي الدَّارَيْنِ، بِأَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ صَفْوَتِه، وَفِي الْآخِرَةِ مِنَ الْمَشْهُودِ لَهُ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي الْخَيْرِ، وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ لَا يَعْدِلَ عَنْ مِلَّتِه وَهَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ مُؤَكَّدَتَانِ، أَمَّا الْأُولَى فَبِاللَّامِ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَبِإِنَّ وَبِاللَّامِ، وَلَمَّا كَانَ إِخْبَارًا عَنْ حَالَةٍ مُغَيَّبَةٍ فِي الْآخِرَةِ، احْتَاجَتْ إِلَى مَزِيدِ تَأْكِيدٍ، بِخِلَافِ حَالِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ أَرْبَابَ الْمَآلِ قَدْ عَلِمُوا اصْطِفَاءَ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْهُ وَنَقَلُوهُ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَأَمَّا كَوْنُهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَأَمْرٌ مُغَيَّبٌ عَنْهُمْ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى إِخْبَارٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَأَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مُبَالِغًا فِي التَّوْكِيدِ(٤)، وفي الآية أيضاً بشارة لإبراهيم بصلاح حاله

(١) التفسير المنير للزحيلي (٣١٧/١).

(٢) صفوة التفاسير محمد على الصابوني، (٨٥/١)، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧م

(٣)مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير(٣٦٠/٢).

(٤) البحر المحيط في التفسير أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت/ ٧٤٥هـ)، (٦٢٩/١)، ت/ صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ

في الآخرة وعدة له بذلك(١)، و"من"استفهامية قصد بها الإنكار والتقريع ورغب في الشيء إذا اراده ورغب عنه إذا تركه اى لا يترك دين ابراهيم أحد ولا يعرض عن شريعته وطريقته إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ اى أذلها وجعلها مهينا حقيرا، "وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيا"اى وبالله لقد اخترنا ابراهيم في الدنيا من بين سائر الخلق بالنبوة والحكمة"وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ"متعلق بقوله"لَمِنَ الصَّالِحِينَ "اى من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح فمن كان صفوة العباد في الدنيا مشهودا له في الآخرة بالصلاح كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عن عن ملته الا سفيه اى في اصل خلقته او متسفه يتكلف السفاهة بمباشرة افعال السفهاء باختياره فيذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمل، وقوله"وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ" بشارة له في الدنيا بصلاح الخاتمة ووعد له بذلك وكم من صالح في أول حاله ذهب صلاحه في مآله وكان في الآخرة لعذابه ونكاله(٢)، وفي قوله"وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ" تعريض باليهود والنصارى ومشركي العرب، لأن اليهود والنصارى يفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم والوصلة إليه، لأنهم من بني إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والعرب يفتخرون به لأنهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم وإذا كان كذلك كان إبراهيم هو الذي طلب بعثة هذا الرسول في آخر الزمان فمن رغب عن الإيمان بهذا الرسول الذي هو دعوة إبراهيم فقد رغب عن ملة إبراهيم(٣)، وإنما عنى الله بذلك اليهود والنصارى، لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام، لأن"ملة إبراهيم"هي الحنيفية المسلمة"مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا"سبورة آل عمران٦٧، فقال تعالى ذكره لهم: ومن يزهد عن ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة إلا من سفه نفسه، فقد رَغِبَ عَنْ مِلَّته الْيَهُود وَالنَّصَارَى وَاتَّخَذُوا الْيَهُودِيَّة وَالنَّصْرَانِيَّة بِدْعَة لَيْسَتْ مِنْ اللَّه، وَتَرَكُوا مِلَّة إِبْرَاهِيم يَعْنِي الْإِسْلَام حَنِيفًا، كَذَلِكَ بَعَثَ اللَّه نَبِيّه مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّه عليه وَسَلَّمَ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيم(٤).

ولقائل أن يقول ههنا سؤال وهو أن المراد بملة إبراهيم هي الملة التي جاء بها محمد عليه السلام لأن المقصود من الكلام ترغيب الناس في قبول هذا الدين فلا يخلو إما أن يقال: إن هذه الملة عين ملة إبراهيم في الأصول والفروع، أو يقال:هذه الملة هي تلك الملة في الأصول أعني التوحيد والنبوة ورعاية مكارم الأخلاق، ولكنهما يختلفان في فروع الشرائع وكيفية

(١) تفسير المراغي أحمد بن مصطفي المراغي (ت/١٣٧١هـ)، (٢٢٠/١)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥هـ ، ١٩٤٦م

(٢) روح البيان إسماعيل حقي بن مصطفي الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء(ت/١١٢٧هـ)، (٢٣٦/١)، دار الفكر، بيروت.

(٣)لباب التأويل في معاني التنزيل علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن(ت/٧٤١هـ)، (٨٢/١)، تصحيح: محمد على شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان (٨٩/٣).

الأعمال، أما الأول: فباطل لأنه عليه السلام كان يدعي أن شرعه نسخ كل الشرائع، فكيف يقال هذا الشرع هو عين ذلك الشرع، وأما الثاني:فهو لا يفيد المطلوب لأن الاعتراف بالأصول أعني التوحيد والعدل ومكارم الأخلاق والمعاد لا يقتضي الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف يتمسك بهذا الكلام في هذا المطلوب، وسؤال آخر وهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما اعترف بأن شرع إبراهيم منسوخ، ولفظ الملة يتناول الأصول والفروع، فيلزم أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام راغباً أيضاً عن ملة إبراهيم فيلزم ما ألزم عليهم، وجوابه:أنه تعالى لما حكي عن إبراهيم عليه السلام أنه تضرع إلى الله تعالى وطلب منه بعثه هذا الرسول ونصرته وتأييده ونشر شريعته، عبر عن هذا المعنى بأنه ملة إبراهيم فلما سلم اليهود والنصارى والعرب كون إبراهيم عليه السلام محقاً في مقاله، وجب عليهم الاعتراف بنبوة هذا الشخص الذي هو مطلوب إبراهيم عليه السلام، قال السائل:إن القول ما سلموا أن إبراهيم طلب مثل هذا الرسول من الله تعالى، وإنما محمد عليه الصلاة والسلام روى هذا الخبر عن إبراهيم عليه السلام ليبني على هذه الرواية إلزام أنه يجب عليهم الاعتراف بنبوة محمد عليه السلام، فإذن لا تثبت نبوته ما لم تثبت هذه الرواية، ولا تثبت هذه الرواية ما لم تثبت نبوته، فيفضي إلى الدور وهو ساقط، سلمنا أن القوم سلموا صحة هذه الرواية لكن ليس في هذه الرواية إلا أن إبراهيم طلب من الله تعالى أن يبعث رسولاً من ذريته وذرية إسماعيل، فكيف القطع بأن ذلك الرسول هو هذا الشخص؟ فلعله شخص آخر سيجيء بعد ذلك، وإذا جاز أن تتأخر إجابة هذا الدعاء بمقدار ألفي سنة، وهو الزمان الذي بين إبراهيم وبين محمد عليهما السلام، فلم لا يجوز أن تتأخر بمقدار ثلاثة آلاف سنة حتى يكون المطلوب بهذا الدعاء شخصاً آخر سوى هذا الشخص المعين؟، والجواب عن السؤال الأول: لعل التوراة والإنجيل شاهدان بصحة هذه الرواية، ولولا ذلك لكان اليهود والنصارى من أشد الناس مسارعة إلى تكذيبه في هذه الدعوى، وعن الثاني: أن المعتمد في إثبات نبوته عليه السلام: ظهور المعجز على يده، وهو القرآن وإخباره عن الغيوب التي لا يعلمها إلا نبي مثل هذه الحكايات، ثم إن هذه الحجة تجري مجرى المؤكد للمقصود والمطلوب والله تعالى أعلم(١)

---

(١)مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير(٣٦٠/٣٥٩/٢)

الآية الثانية"وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" سورة البقرة آية ١٣٥

مناسبة الآية لما قبلها: لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة، ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية، وبيّن أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام، دين جميع الأنبياء والمرسلين(١).

ونَزَلَتْ فِي رُؤُوسِ يَهُودِ الْمَدِيْنَةِ كَعْب بْنِ الأَشْرَفِ وَمَالِكِ بْنِ الضَّيْفِ وَوَهَب بْنِ يَهُودَا وَأَبِي يَاسِرٍ، وَفِي نَصَارَى نَجْرَانَ السَّيِّدِ وَالْعَاقِبِ وَأَصْحَابِهِمَا، خَاصَمُواْ الْمُسْلِمِيْنَ فِي الدِّيْنِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ:نَبِيُّنَا مُوسَى أفْضَلُ الأَنْبِيَاءِ؛وكِتَابُنَا التَّوْرَاةُ أفْضَلُ الْكُتُبِ؛وَدِيْنُنَا أفْضَلُ الأَدْيَانِ؛وكَفَرْتُ بعِيْسَى وَالإنْجِيْلِ وَمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى:نَبِيُّنَا عِيْسَى أفْضَلُ الأَنْبِيَاءِ؛وكِتَابُنَا الإنْجِيْلُ أفْضَلُ الْكُتُبِ؛وَدِيْنُنَا أفْضَلُ الأَدْيَانِ؛وكَفَرْتُ بمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيْقَيْنِ لِلْمُسْلِمِيْنَ: كُونُواْ عَلَى دِيْنِنَا؛فَلاَ دِيْنَ إلاَّ ذَلِكَ؛دَعَوْهُمْ إلَى دِيْنِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى"قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً"؛أي مُسْلِماً مُخْلِصاً مائلاً عن كلِّ دينٍ سوى الإسلام "وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"يعني إبراهيمَ عليه السلام(٢)، وعندما تأتي" قالوا"فمعناها إن الذين قالوا جماعة ، والذين قالوا هم اليهود والنصارى، ولكن كلا منهم قال قولا مختلفا عن الآخر، قالت اليهود كونواهودا، وقالت النصارى كونوا نصارى، ونحن عندنا عناصر ثلاثة:اليهود والنصارى والمشركون، ويقابل كل هؤلاء المؤمنون"وَقَالُواْ كُونُواْ"من المقصود بالخطاب؟ المؤمنين، أو قد يكون المعنى وقالت اليهود للمؤمنين والمشركين والنصارى كونوا هودا، وقالت النصارى لليهود والمشركين والمؤمنين كونوا نصارى، لأن كل واحد منهما لا يرى الخير إلا في نفسه، ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى وتوراته الصحيحة، وأخذ من المسيحية عيسى وإنجيله الصحيح، وكل ما جاء به محمد صلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم، ومعنى ذلك أن الإسلام أخذ وحدة الصفقة الإيمانية المعقودة بين الله سبحانه وبين كل مؤمن، ولذلك تجد في القرآن الكريم قوله تعالى"لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ"البقرة٢٨٥، وفي معنى حنيفا؟ نقول: إن الاشتقاقات اللفظية لابد أن يكون لها علاقة بالمعنى اللغوي والحنف ميل في القدمين أن تميل قدم إلى أخرى، هو تقوس

(١)صفوة التفاسير(٨٧/١).

(٢)فتح البيان في مقاصد القرآن أبو الطيب محمد صديق خان(٢٨٩/١)، ، تفسير القرآن العظيم (المنسوب) للإمام الطبراني (ص: ٠) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت/٣٦٠ هـ)، المصدر: الشاملة الذهبية

في القدمين فتميل القدم اليمنى إلى اليسار أو اليسرى إلى اليمين هذا هو الحنف، ولكن كيف يؤتي بلفظ يدل على العوج ويجعله رمزا للصراط المستقيم؟، قلنا إن الحنف هو الاعوجاج، ونقول إن الاعوجاج عن المعوج اعتدال، والرسل لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل في المجتمع، ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال، لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال، وقوله تعالى"حنيفا" تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال(١)، ولما كانت ملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة، وكان الركون عنها ذروة السفاهة، كشف النص عن دعاوى أهل الكتاب الباطلة، مؤكدًا أن التمسك بالإسلام هو الدين الحق، فقد نزلت الآية ردًا على اليهود والنصارى، الذين زعم كل فريق منهم أن دينه هو الأفضل، داعين المسلمين إلى اتباعه، فجاء الإسلام ليجمع شتات الحق، ويأخذ من كل دين ما صح منه، مؤكدًا أنه لا تفريق بين الرسل، و(الهداية) إنما هي في اتباع ما كان عليه إبراهيم عليه السلام وفي اتباع من سار على نهجه وهو محمد صلّى الله عليه وسلّم، وفي هاتين الجملتين وهما قوله"بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً"وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها، ولبعدها عن الشرك، وفي ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هي معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به، وفي الآية الكريمة جواب إلزام لهم وهو قوله تعالى"بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً"وتقرير هذا الجواب:أنه إن كان طريق الدين التقليد، فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه(٢)، وظاهر الآية أَنَّهُا عَطْفٌ عَلَى قَوْله"وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ"الْبَقَرَة ١٣٠، فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ ذَمَّهُمْ بِالْعُدُولِ عَنْ تَلَقِّي الْإِسْلَامِ الَّذِي شَمِلَ خِصَالَ الْحَنِيفِيَّةِ بَيَّنَ كَيْفِيَّةَ إِعْرَاضِهِمْ وَمِقْدَارَ غُرُورِهِمْ بِأَنَّهُمْ حَصَرُوا الْهُدَى فِي الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ أَيْ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ حَصَرَ الْهُدَى فِي دِينِهِ، وَوَجْهُ الْحَصْرِ حَاصِلٌ مِنْ جَزْمِ"تَهْتَدُوا" فِي جَوَابِ الْأَمْرِ فَإِنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ شَرْطٍ فَيُفِيدُ مَفْهُومُ الشَّرْطِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا لَا يَرَاهُ الْيَهُودُ مُهْتَدِيًا وَمَنْ لَمْ يَكُنْ نَصْرَانِيًّا لَا يَرَاهُ النَّصَارَى مُهْتَدِيًا أَيْ نَفَوُا الْهُدَى عَنْ مُتَّبِعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا غَايَةُ غُرُورِهِمْ (٣)، وَ"أَوْ" لِلتَّوْزِيعِ أَوِ التَّنْوِيعِ، أَيْ إِنَّ الْيَهُودَ يَدْعُونَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي هُمْ عليها وَيَحْصُرُونَ الْهِدَايَةَ فِيهَا، وَالنَّصَارَى يَدْعُونَ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ

(١)تفسير الشعراوي (٦٠٥/١)

(٢)التفسير الوسيط لطنطاوي (٢٨٢/١)

(٣)التحرير والتنوير"تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت/١٣٩٣هـ)(٧٣٦/١)، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة النشر١٩٨٤هـ

الَّتِي هُمْ عليها وَيَحْصُرُونَ الْهِدَايَةَ فِيهَا، وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مَعْهُودٌ فِي اللُّغَةِ وَلَوْ صدَقَ أَيُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُهْتَدِيًا؛لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَكَيْفَ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى كَوْنِهِ إِمَامَ الْهُدَى وَالْمُهْتَدِينَ؛لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى مُلَقِّنًا لِنَبِيِّهِ الْبُرْهَانَ الْأَقْوَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ"قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"أَيْ بَلْ نَتَّبِعُ أَوِ اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي لَا نِزَاعَ فِي هُدَاهُ وَلَا فِي هَدْيِهِ، فَهِيَ الْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْجَادَّةِ بِلَا انْحِرَافٍ وَلَا زَيْغٍ، الْعَرِيقَةُ فِي التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ بِلَا وَثَنِيَّةٍ وَلَا شِرْكٍ(١)، وقوله:"قل بل"مضرباً عن مقالهم، أي لا يكون شيئاً مما ذكرتم بل نكون أو نلابس أنا ومن لحق بي من كمل أهل الإسلام"ملة إبراهيم"ملابسة نصير بها إياها كأننا تجسدنا منها، وهو كناية عن عدم الانفكاك عنها، فهو أبلغ مما لو قيل:بل أهل ملة إبراهيم، وفيه كمال تسنن محمد صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ في ملته بملة إبراهيم عليه السلام الذي هو الأول لمناسبة ما بين الأول والآخر(٢)، وانتصب"مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ"، لأن فيه ضمير فعل، كأن مجازه بل اتبعوا ملة إبراهيم، أو:عليكم ملة إبراهيم، "حَنِيفاً"الحنيف في الجاهلية من كان على دين إبراهيم، ثم سمّى من اختتن وحج البيت حنيفا لما تناسخت السنون، وبقي من يعبد الأوثان من العرب قالوا:نحن حنفاء على دين إبراهيم، ولم يتمسكوا منه إلا بحج البيت، والختان والحنيف اليوم:المسلم(٣)، وقرىء"مِلّةُ إبراهيم"بالرفع، أي ملته ملتنا، أو أمرنا ملته، أو نحن ملته بمعنى أهل ملته، وقوله"وَمَا كَانَ مِنَ المشركين"تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلا منهم يدّعي اتباع إبراهيم وهو على الشرك(٤)، و"قُلْ" خطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، أي قل لأولئك القائلين على سبيل الرد عليهم، وتبيين ما هو الحق لديهم وإرشادهم إليه بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ أي لا نكون كما تقولون، بل نكون مِلَّةَ إِبْراهِيمَ أي أهل ملته أو بل نتبع مِلَّةَ إِبْراهِيمَ(٥)، وبهذه الآية احتج الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ حجة وأوجزها وأكملها، وعلمها محمدا نبيه صلى الله عليه وسلم فقال:يا محمد قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك"كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا"بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتباه وأمر به فإن دينه كان الحنيفية المسلمة وندع سائر الملل التي نختلف فيها، فينكرها بعضنا، ويقر بها بعضنا، فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم،

---

(١)تفسير المنار (٣٩٥/١).

(٢)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن على بن أبي بكر البقاعي (ت/٨٨٥هـ)، (١٨٤/٢)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

(٣)مجاز القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري(ت/٢٠٩هـ)، (٥٧/١)، ت/ محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة١٣٨١هـ

(٤)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(ن موقع التفاسير)(١٣٨/١، بترقيم الشاملة آليا)المصدر: الشاملة الذهبية

(٥)تفسير الألوسي = روح المعاني (٣٩١/١)

وسمي دين إبراهيم الإسلام"الحنيفية"، لأنه أول إمام لزم العباد الذين كانوا في عصره ، والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة اتباعه في مناسك الحج، والائتمام به فيه، فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته، فهو"حنيف"مسلم على دين إبراهيم(١)، وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محض ضلال وارتكاب بطلان، وأن الدين المرضيّ عند الله الإسلام، وهو دعوة الخلق على توحيده تعالى، وعبادته وحده، لا شريك له، ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم بعث الله نبيه محمدا خاتم النبيين لدعوة الناس جميعا إلى هذا الأصل(٢)، والخلاصة:أن ملة إبراهيم هي دين الإسلام وهو الصراط المستقيم وأن اليهود زعموا أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام فكذبهم القرآن، وأن الحج من أعظم شعائر ملته عليه السلام واليهود والنصارى لا يحجون، ولذلك نص عليه في الآية الكريمة، فالآية تدعو إلى العودة إلى ملة إبراهيم عليه السلام، التي تمثل التوحيد والعبادة الخالصة لله، وتبرز أهمية عدم الانتماء إلى الأديان أو الفرق بغير علم، بل يجب اتباع الحق، وتشير إلى أن الإيمان الصحيح هو الذي يبتعد عن الشرك ويقوم على أساس التوحيد، وتعكس الافتخار بالهوية الإسلامية التي تستند إلى الأنبياء الكرام، وخاصة إبراهيم عليه السلام، وتدعو الناس للتفكر في مسألة الدين واختيار الطريق الصحيح بناءً على معرفة وإيمان، وباختصار الآية تحث على التمسك بالتوحيد والابتعاد عن الفرق الضالة، مع التأكيد على أهمية الهوية الإيمانية المستندة إلى أصول الدين الصحيحة.

الآية الثالثة:"قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" آل عمران ٩٥

مناسبة الآية لما قبلها: لما اتضح كذبهم وافتضح تدليسهم لأنه لما استدل عليهم بكتابهم فلم يأتوا به صار ظاهراً كالشمس، لا شك فيه ولا لبس، ولم يزدهم ذلك إلا تمادياً في الكذب أمر سبحانه وتعالى نبيه صلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ بقوله"قل"أي لأهل الكتاب الذين أنكروا النسخ فأقمت عليهم الحجة من كتابهم"صدق الله"أي الملك الأعظم الذي له الكمال كله في جميع ما أخبر، وتخبر به عن ملة إبراهيم وغيره من بنيه أسلافكم، وتبين أنه ليس على دينكم هو ولا أحد ممن قبل موسى عليه الصلاة والسلام، لأنكم لو كنتم صادقين لأتيتم بالتوراة، نافياً بذلك أن يكون تأخرهم عن الإتيان بها لعلة يعتلون بها غير ذلك، وإذ قد تبين صدقه تعالى في جميع ما قال وجب اتباعه في كل ما يأمر به، وأعظمه ملة إبراهيم فإنها الجامعة للمحاسن(٣).

---

(١)تفسير الطبري (١٠٤/٣، ١٠٢).

(٢)تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٤٠٧/١)

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/٥).

يقول الإمام الرازى: اعلم أن الآيات المتقدمة إلى هذه الآية كانت في تقرير الدلائل الدالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي توجيه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب في هذا الباب، وأما هذه الآية فهي في بيان الجواب عن شبهات القوم فإن ظاهر الآية يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعي أن كل الطعام كان حلاً ثم صار البعض حراماً بعد أن كان حلاً والقوم نازعوه في ذلك وزعموا أن الذي هو الآن حرام كان حراماً أبداً(١)

ومعنى الآية:"قل"يا محمد" صدق الله"، فيما أخبرنا به من قوله"كلّ الطعام كان حلا لبني إسرائيل"، وأن الله لم يحرم على إسرائيل ولا على ولده العروقَ ولا لحومَ الإبل وألبانَها، وأنّ ذلك إنما كان شيئًا حرّمه إسرائيل على نفسه وَوَلَده بغير تحريم الله إياه عليهم في التوراة وفي كل ما أخبر به عباده من خبر دونكم، وأنتم يا معشر اليهود الكذبةُ في إضافتكم تحريم ذلك إلى الله عليكم في التوراة المفتريةُ على الله الباطل في دعواكم عليه غير الحق(٢)، أو"قُلْ صَدَقَ اللَّهُ" فيما أنبأنى به من أن سائر الأطعمة كانت حلالا لبنى إسرائيل، وأنها إنما حرمت على اليهود جزاء أفعالهم القبيحة، وبذا قامت عليكم الحجة، وثبت أنى مبلغ عنه، إذ ما كان في استطاعتي لولا الوحى أن أعرف صدقكم من كذبكم فيما تحدثون عن أنبيائكم، "فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً" أي وإذ قد استبان لكم أن ما يدعوكم إليه محمد صلى الله عليه وسلم هو من ملة إبراهيم، فعليكم أن تتبعوه في استباحة أكل لحوم الإبل وألبانها، وملته حنيفية سمحاء لا إفراط فيها ولا تفريط، "وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"الذين يدعون مع الله إلها آخر، أو يعبدون سواه، كما فعله العرب من عبادة الأوثان، وفعله اليهود من ادّعائهم أن عزيرا ابن الله، وفعله النصارى من اعتقادهم أن المسيح ابن الله(٣)، و"قُلْ صَدَقَ الله"تعريض بكذبهم كقوله"ذلك جزيناهم بِبَغْيِهِمْ وإِنَّا لصادقون"الأنعام١٤٦، أي ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون"فاتبعوا مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً"وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه ، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم، حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضك، وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه(٤)، وفي قوله"قُلْ صَدَقَ الله"وجوهاً أحدها"قُلْ صَدَقَ"في أن ذلك النوع من الطعام صار حراماً على إسرائيل وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم، فصح القول بالنسخ، وبطلت شبهة اليهود ، وثانيها:"صَدَقَ الله"في قوله إن لحوم الإبل وألبانها كانت محللة لإبراهيم عليه السلام وإنما حرمت على بني إسرائيل لأن

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير(٢٩٩/٤)
(٢) تفسير الطبري = جامع البيان(١٧/٦).
(٣) تفسير المراغي (٦/٤).
(٤)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشرى(٢٩٨/١).

إسرائيل حرمها على نفسه، فثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما أفتى بحل لحـــوم الإبـــل وألبانها، فقد أفتى بملة إبراهيم، وثالثها:"صَدَقَ الله"في أن سائر الأطعمة كانـــت محللـــة لبنـــي إسرائيل وأنها إنما حرمت على اليهود جزاءً على قبائح أفعالهم، ثم قال تعـــالى"فـــاتبعوا مِلَّـــةَ إبراهيم حَنِيفاً" أي اتبعوا ما يدعوكم إليه محمد صلوات الله عليه من ملـــة إبـــراهيم، وســـواء قال:ملة إبراهيم حنيفاً، أو قال ملة إبراهيم الحنيف لأن الحال والـــصفة ســـواء فـــي المعنـــى، والغرض بيان أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ على دين إبراهيم في الفـــروع والأصـــول؛لأن مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لا يدعو إلا إلى التوحيد، والبراءة عـــن كـــل معبـــودٍ ســـوى اللهِ تعالى(١)، فقد أمر الله تعالى نبيه صلّى الله عليه وسلّم أن يدعوهم إلى اتباع ملـــة إبـــراهيم إن كانوا حقا يريدون اتباعها "قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً" أى: قل يا محمـــد لهـــؤلاء اليهود الذين جادلوك بالباطل ولكل من كان على شـــاكلتهم فـــي الكـــذب والظلـــم، قـــل لهـــم جميعا:صدق الله فيما أخبرنا به في قوله تعالى كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا مـــا حَـــرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ، وفي كل ما أخبرنا به في كتابه وعلى لسان رسوله، وأنتم الكـــاذبون فـــي دعواكم، وإذ كنتم تريدون الوصول إلى الطريق القويم حقا فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً(٢)، فملّـــة إبراهيم التسليم لله تعالي والخروج إلى الله بالكلية، والتسليم لحكمه مـــن غيـــر أن تبقـــى بقيـــة فإثبات ذرة في الحسبان من الحدثان شرك في التحقيق(٣)

والْجُمْهُورُ عَلَى إِظْهَارِ اللَّامِ في قوله"قُلْ صَدَقَ اللَّهُ"وَهُوَ الْأَصْلُ، وَيُقْرَأُ بِالْإِدْغَامِ، لِأَنَّ الصَّادَ فِيهَا انْبِسَاطٌ، وَفِي اللَّامِ انْبِسَاطٌ بِحَيْثُ يَتَلَاقَى طَرَفَاهُمَا فَصَارَا مُتَقَارِبَيْنِ، وَالتَّقْدِيرُ:قُـــلْ لَهُـــمْ صَـــدَقَ اللَّهُ(٤)، وقوله"فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ"أَيْ:مِلَّةَ الْإِسْلَامِ الَّتِي أَنَا عليها، وَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ:إِذَا تَبَـــيَّنَ لَكُـــمْ صِدْقِي، وَصِدْقُ مَا جِئْتُ بِهِ، فَادْخُلُوا فِي دِينِي، فإن من جملة ما أنزله اللَّهُ على"وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ"آل عمران٨٥(٥)، وَالتَّفْرِيعُ فِي قَوْلِهِ"فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ" تَفْرِيعٌ عَلَـــى صَدَقَ اللَّهُ لِأَنَ اتِّبَاعَ الصَّادِقِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ مَنْجَاةٌ مِنَ الْخَطَرِ(٦)، ثم نفي الله تعالى عن إبـــراهيم كل لون من ألوان الشرك بأبلغ وجه فقال"وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، أى ما كان إبراهيم فـــي أى أمر من أموره من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى، وإنما كان مخلصا عبادتـــه الله وحـــده،

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (ن موقع التفاسير)(٣٠٣/٤) اللباب في علوم الكتاب(٣٩٦/٥).

(٢)التفسير الوسيط لطنطاوي (١٨٤/٢).

(٣) لطائف الإشارات = تفسير القشيري عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت/٤٦٥هـ)(٢٥٩/١)، ت/ إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣

(٤) التبيان في إعراب القرآن أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري(ت/٦١٦هـ)، (٢٨٠/١)، ت/على محمد البجاوي، الناشر، عيسى البابي الحلبي وشركاه

(٥) فتح القدير للشوكاني (٤١٤/١).

(٦) التحرير والتنوير(١١/٤)

وفي ذلك تعريض بشرك اليهود وغيرهم من أهل الكفر والضلال، وتنبيه إلى أن النبي صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه هم المتبعون حقا لإبراهيم، فقد أمر الله محمدا صلّى الله عليه وسلّم أن يسير على طريقة أبيه إبراهيم فقال"ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" النحل١٢٣(١)، وفي قوله"وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعريض بشرك اليهود(٢)، ففي بيان بديع تتجلى دعوة "فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ" كمنارة هدى، تشير إلى الإسلام الحق، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب القلوب قائلاً:إذا سطع نور صدقي في أفئدتكم، فاهتدوا إلى ديني، فهو السبيل القويم، إذ لا يقبل الله سواه، ففي اتباع الصادق نجاة من المهالك، ثم يرتفع البيان ليبرئ إبراهيم الخليل من كل شائبة شرك، مؤكداً إخلاصه لله وحده، ومعرضاً بضلال المشركين، ويختتم النص بتأكيد أن النبي وأتباعه هم ورثة إبراهيم الحقيقيون، إذ أمره الله بالسير على نهجه القويم، فببلاغة آسرة يصدح النص بـ"قُلْ صَدَقَ اللَّهُ"، ليجلجل صداه في أرجاء الحق، ويكشف زيف ادعاءات اليهود بشأن تحريم بعض الأطعمة، فالله جلّ ثناؤه، يصدق نبيه فيما أخبر به، ويكشف كذب القوم وتحريفهم، ثم يتردد النداء"فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً"، كدعوة إلى النقاء والصفاء، إلى دين سمح لا غلو فيه ولا تفريط، دين يبرأ من الشرك وأهله، فالنبي صلى الله عليه وسلم، يدعو إلى ملة إبراهيم، دين التوحيد الخالص، دين ينجي من براثن اليهودية التي أوقعتهم في التحريف والضلال، ففي اتباع ملة إبراهيم الخلاص من ربقة التحريمات الباطلة ، والعودة إلى الفطرة السليمة.

الآية الرابعة: وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا سورة النساء١٢٥

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن بين الله سبحانه أن الجزاء منوط بالعمل والإيمان، لا بالأماني المعسولة والتمنيات الموهومة الكاذبة، أوضح لجميع الناس أنه لا أحسن دينا ممن أخلص مقصده وتوجهه لله، وأحسن في أعماله، واتبع ملة التوحيد الحنيفية التي هي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد سمى الله إبراهيم خليلا لإخلاصه لربه في عبادته، واجتهاده في مرضاة خالقه، وتفانيه في حب الله والإيمان به(٣)، وقيل: بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن النجاة والسعادة منوطان بصالح الأعمال مع الإيمان، أردف ذلك بذكر درجات الكمال

(١)التفسير الوسيط لطنطاوي(١٨٥/٢).

(٢)أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي(ت/٦٨٥هـ) (٢٩/٢)، ت/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ

(٣)التفسير الوسيط للزحيلي (٣٨٥/١).

فقال"وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا"؛أي:لا أحد أحسن دينًا وطريقة"مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ"؛ أي:نفسه"لِلَّهِ"وعبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء؛أي:ممن عرف ربه بقلبه، وأقر بربوبيته وبعبودية نفسه، وجعل قلبه خالصًا لله وحده، فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا رجاء، ولا يجعل بينه وبينه حجابًا من الوسطاء والشفعاء، ولا يرى في الوجود إلا هو، ويعتقد أنه سبحانه وتعالى ربط الأسباب بالمسببات، فلا يطلب شيئًا إلا من خزائن رحمته، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها، وهي السنن والأسباب التي سنها في الخلائق، "وَهُوَ مُحْسِنٌ"؛أي:والحال أنه آت بالحسنات تارك للسيئات؛أي:والحال أنه مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل، مُتَحَلٍّ بأحسن الأخلاق والفضائل، عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه؛لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس، من إقبال وإعراض وسرور وكآبة، وما فيه هو الذي يدل على ما في السريرة(١)، فقوله"وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ"، أَيْ:مِمَّنْ جَعَلَ قَلْبَهُ سَلَمًا خَالِصًا لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا يَتَوَجَّهُ إِلَى غَيْرِهِ فِي دُعَاءٍ وَلَا رَجَاءٍ، وَلَا يَجْعَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابًا مِنَ الْوُسَطَاءِ وَالْحُجَّابِ، بَلْ يَكُونُ مُوَحِّدًا صِرْفًا لَا يَرَى فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللهَ وَآثَارَ صِفَاتِهِ وَسُنَنِهِ فِي رَبْطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبِّبَاتِ، فَلَا يَطْلُبُ شَيْئًا إِلَّا مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ، وَلَا يَأْتِي بُيُوتَ هَذِهِ الْخَزَائِنِ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا وَهِيَ السُّنَنُ وَالْأَسْبَابُ وَلَا يَدْعُو مَعَهُ وَلَا مِنْ دُونِهِ أَحَدًا فِي تَيْسِيرِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَتَسْهِيلِ الطُّرُقِ وَتَذْلِيلِ الصِّعَابِ، وَهُوَ مَعَ هَذَا الْإِيمَانِ الْخَالِصِ، وَالتَّوْحِيدِ الْكَامِلِ مُحْسِنٌ فِي عَمَلِهِ، مُتْقِنٌ لِكُلِّ مَا يَأْخُذُ بِهِ، مُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِ اللهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَأَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صَنَعَهُ، وقوله"وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"، أَيْ:وَاتَّبَعَ فِي دِينِهِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا أَيْ:حَالَ كَوْنِهِ حَنِيفًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ حَالَ كَوْنِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، أَيْ:اتَّبَعَهُ فِي حَنِيفِيَّتِهِ، الَّتِي كَانَ عليها، وَهِيَ مَيْلُهُ عَنِ الْوَثَنِيَّةِ وَأَهْلِهَا وَتَبَرُّؤُهُ مِمَّا كَانَ عليه أَبُوهُ وَقَوْمُهُ مِنْهَا(٢)، وقيل:ممن انقاد بكليته إلى مولاه وَهُوَ مُحْسِنٌ أي:مُوَحِّدٌ أحسَنَ فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين عباد الله، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً بأن دخل في الدين المحمدي الذي هو موافق لملة إبراهيم بل هو عينه، فمن ادعى أنه على ملة إبراهيم ولم يدخل فيه فقد كذب، ثم ذكر ما يحث على اتباع ملته، فقال"وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا" أي: اصطفاه وخصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكره ولم يضمر تفخيمًا له وتنصيصًا على أنه الممدوح، وسمي خليلاً لأنه قد تخللت محبة الله في جميع أجزائه(٣)

(١)تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٣٦٩/٦).

(٢) تفسير المنار(٣٥٧/٥)

(٣)البحر المديد في تفسير القرآن المجيد أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي(ت/١٢٢٤ه)، (٥٦٥/١)، ت/ أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، الطبعة: ١٤١٩هـ.

وقيل:ممن انقاد بقلبه وسائر جوارحه لله تعالى وحده، وهو محسن، واتبع دين إبراهيم وشرعه، مائلا عن العقائد الفاسدة والشرائع الباطلة، وقد اصطفي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، واتخذه صفيّاً من بين سائر خلقه، وفي هذه الآية، إثبات صفة الخُلّة لله تعالى وهي أعلى مقامات المحبة والاصطفاء(١)، و"الواو"استئنافيّة، "من"اسم استفهام مبني في محل رفع مبتدأ، ودينا تمييز، والإستفهام معناه النفي، أي لا أحد أحسن من الله صبغة و"أحسن" هنا لا يراد بها حقيقة التفضيل، إذ صبغة غير الله منتف عنها الحسن، أو يراد التفضيل باعتبار من يظن أن في صبغة غير الله حسناً، لا أن ذلك بالنسبة إلى حقيقة الشيء(٢). وقوله"أَسْلَمَ وَجْهَهُ" فيه لفتة لطيفة ودقيقة، حيث خصّ الوجه بالإسلام لله عز وجل لما يشتمل عليه من السمع والبصر والعقل وبقية الحواس، فهو بمثابة المقود للإنسان فإذا أسلم هذا العضو فبقية الأعضاء تبع له ومنقادة لأوامره ونواهيه وهذا من أسرار البلاغة والبيان والدقة المتناهية في التعبير القرآني الكريم، وقوله"وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا" مجاز عن اصطفائه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وهي جملة اعتراضية فائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته، لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتّخذ خليلا، كان جديرا بأن تتبع ملته وطريقته(٣).

ويأتي الوجه على خمسة وجوه: الوجه الأول:يعني قبلة، وذلك قوله في سورة البقرة١٤٨"وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ" يعني قبلة، والثاني:يعني دينا، وذلك قوله في سورة النِّساء"وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله"١٢٥ يعني أخلص وجهه دينه الله، والثالث:يعني الله تبارك وتعالى، وذلك قوله"وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"الأنعام ٥٢، يعني يريدون الله ورضاه، والرابع: وجه يعني الوجه بعينه خاصة، وذلك قوله في آل عمران١٠٦"يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ" يعني الوجوه بعينها، والخامس:الوجه يعني أولا، وذلك قوله في آل عمران٧٢"وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب آمِنُواْ بالذي أُنْزِلَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَجْهَ النهار واكفروا آخِرَهُ" يعني أوّل النَّهار(٤)، وقال ابن عباس: خيّر الله بين الأديان بهذه الآية، "أَسْلَمَ"بمعنى:أخلص، وفي اتِّباع ملة إبراهيم قولان:أحدهما:اتباعه على التوحيد والطاعة،

---

(١)التفسير الميسر نخبة من أساتذة التفسير، (٩٨/١)، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ط٢، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م

(٢)دراسات لأسلوب القرآن الكريم محمد عبد الخالق عضيمة(ت ١٤٠٤ هـ)، (٢٧٩/٣)، تصدير/محمود محمد شاكر

دار الحديث، القاهرة، الطبعة: بدون، الجدول في إعراب القرآن محمود بن عبد الرحيم صافي (ت/١٣٧٦هـ)، (١٨٣/٥)، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط٤، ١٤١٨هـ، إعراب القرآن وبيانه محيي الدين بن أحمد مصطفي درويش(ت/١٤٠٣ه)، (٣٢٩/٢)، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية(دار اليمامة، دمشق، بيروت)، (دار ابن كثير، دمشق، بيروت)، ط٤، ١٤١٥هـ

(٣)الجدول في إعراب القرآن محمود بن عبد الرحيم صافي (ت/١٣٧٦هـ)، (١٨٣/٥)، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط٤، ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء٣١ ، ٣٠ ومجلد فهارس) في ١٦مجلدا

(٤)التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت/٢٠٠هـ)، (ص: ١٥٦)، قدمت له وحققته:هند شلبي، الناشر:الشركة التونسية للتوزيع، عام النشر: ١٩٧٩م

والثاني:اتباع شريعته، وأما الخليل، فقال ابن عباس:الخليل الصفي، وقال غيره:المصافي، وقيل:الفقير، فجائز أن يكون إبراهيم سُمّي خليل الله بأنه أحبّه محبةً كاملةً، وجائز أن يكون لأنه لم يجعل فقرَه وفاقته إلاّ إليه، والخُلّة :الصداقة، لأن كلَّ واحد يسدُّ خلل صاحبه، والخَلة بفتح الخا:الحاجة:سُميت خَلَّة للاختلال الذي يلحق الإنسان فيما يحتاج إليه، وسمي الخَلّ الذي يؤكل خلاً، لأنه اختلّ منه طعم الحلاوة، والمعنى:أنه كان يحبُ الله، ويحبهُ الله محبة لا نقص فيها ولا خلل(١)، وقوله "واتخذ الله إبراهيم خَليلاً"اصطفاه وخصَّه بكرامات تُشبه كراماتِ الخليلِ عند خليله واظهاره صلى الله عليه وسلم في مواقع الإضمار لتفخيم شأنه والتنصيصِ على أنه الممدوحُ وتأكيدِ استقلالِ الجملةِ الاعتراضية، وقيل:الخُلّةُ من الخلالِ فإنه ودٌّ تخلَّل النفسَ وخالطَها، وقيل من الخَلَل فإن كلَّ واحدٍ من الخليلين يسد خلَلَ الآخَر أو من الخل وهو الطريقُ في الرمل فإنهما يتوافقان في الطريقة أو من الخَلّة بمعنى الخَصْلة فإنهما يتوافقان في الخِصال وفائدةُ الاعتراضِ جملة من جملتها الترغيبُ في اتباع ملتِه عليه السلام فإن من بلغ من الزُّلفي عند الله تعالى مَبْلغاً مصحِّحاً لتسميته خليلاً حقيقٌ بأن يكون اتباعُ طريقته أهم ما يمتد إليه أعناقُ الهمم وأشرفَ ما يَرمُق نحوه أحداقُ الأمم(٢)، والخليلُ:الذي ليسَ في محبته خَلَلٌ، والخُلَّةُ:الصداقةُ؛ لأن الله أحبَّه واصطفاه، ومن أحسن ما قيل فيه أن الخليل المختصّ اختصّه الله جلّ وعزّ في وقته للرسالة والدليل على هذا قول النبي صلّى الله عليه وسلّم، وَلَقَد اتَّخَذَ اللهُ صاحِبَكُمْ خَلِيلًا"يعني نفسه صلّى الله عليه وسلّم، وقال صلّى الله عليه وسلّم"لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَخِي، وَصَاحِبِي أي لو كنت مختصا أحدا بشيء لاختصصت أبا بكر، وفي هذا ردّ على من زعم أن النبي صلّى الله عليه وسلّم اختصّ بعض أصحابه بشيء من أمر الدين(٣)، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ، يَعْنِي:دِينَ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ "حَنِيفاً"أَيْ:مُسْلِمًا مُخْلِصًا، قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:وَمِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ الصَّلَاةُ إِلَى الْكَعْبَةِ وَالطَّوَافُ بِهَا وَمَنَاسِكُ الْحَجِّ، وإنّما خصّ بها إِبْرَاهِيمُ لِأَنَّهُ كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ الْأُمَمِ أَجْمَعَ(٤)، وَ"أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ"مَعْنَاهُ أَخْلَصَ دِينَهُ لِلَّهِ وَخَضَعَ لَهُ وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:أَرَادَ أَبَا

---

(١)زاد المسير في علم التفسير جمال الدين أبو الفرج الجوزي (٤٧٨/١).

(٢)إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي (ت/٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣)فتح الرحمن في تفسير القرآن مجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي(ت/٩٢٧هـ)(٢٠٣/٢) اعتنى به تحقيقا وضبطا وتخريجا:نور الدين طالب، دار النوادر(إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإسلاميّة، إدَارَةُ الشُؤُونِ الإسلَاميّة)، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، إعراب القرآن للنحاس أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت/٣٣٨هـ)، (٢٤٠/١)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٤٢١ هـ، صحيح مسلم المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري(ت/٢٦١هـ)، (١٨٥٥/٤)رقم(٢٣٨٣) كتاب:فضائل الصحابة، باب:من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت

(٤)تفسير البغوي أبو محمد الحسين بن الفراء البغوي(٧٠٥/١).

بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا لِأَنَّ مَحَبَّتَهُ تَتَخَلَّلُ الْقَلْبَ فَلَا تَدَعُ فِيهِ خَلَلًا إِلَّا مَلَأَتْهُ، وَقِيلَ:الْخَلِيلُ مِنَ الاخْتِصَاصِ فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمُ اخْتَصَّ إِبْرَاهِيمَ فِي وَقْتِهِ لِلرِّسَالَةِ (١)، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا"الواو واو الاعتراض، وجملة اتخذ الله إبراهيم اعتراضية، فائدتها التوكيد على تقريب إبراهيم وتمييزه بأنه اتخذه الله خليلا، وخليلا مفعول به ثان لاتخذ(٢)، فالآية تبين أن أحسن الدين من يسلم وجهه لله تعالي، مما يعني الإخلاص في العبادة والطاعة، وتشير إلى أهمية الإحسان في الأعمال، فالإسلام ليس مجرد أقوال بل يتطلب أفعالاً صالحة، كما توضح أن اتباع ملة إبراهيم الحنيفية هو الطريق الصحيح، مما يدل على أهمية الاسترشاد بالأنبياء عليهم السلام، وتشير إلى المكانة العالية التي منحها الله لإبراهيم عليه السلام، حيث اتخذه خليلًا، مما يدل على فضل المحسنين، فالآية تعكس مفهوم التميز في الدين، حيث يكون للمسلم الذي يجمع بين الإيمان والعمل الصالح مكانة خاصة، باختصار تدعو الآية إلى الإخلاص في العبادة، واتباع الطريق الصحيح، والحرص على الأعمال الصالحة مما يحقق القرب من الله تعالي.

الآية الخامسة: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ سورة الأنعام١٦١

مناسبة الآية لما قبلها: اعلم أنه تعالى لما اعلم رسوله أنواع دلائل التوحيد، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والأضداد وبالغ في تقرير إثبات التوحيد، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والأضداد، وبالغ في تقرير إثبات التوحيد والنافين للقضاء والقدر، ورد على أهل الجاهلية في أباطيلهم، أمره أن يختم الكلام بقوله"إِنَّنِى هَدَانِى رَبّى إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ "وذلك يدل على أن الهداية لا تحصل إلا بالله(٣).

يقول صاحب نظم الدرر: لما تضمن ما مضى تصحيح التوحيد بالأدلة القاطعة وتحقيق أمر القضاء والقدرة وإبطال جميع أديان الضلال ووصفها بتفرق أهلها الدال على بطلانها واعوجاجها، وختم بهذا التحذير الذي لا شيء أقوم منه ولا أعدل، أمره صلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ بالإعلان بأمره وأن يصف دينه الذي شرعه له وهداه إليه بما فيه من المحاسن تحبيباً فيه وحثاً عليه ولأن ذلك من نتيجة هذه السورة فقال"قل"وأكد بالإتيان بالنونين فقال"إنني هداني"أي بياناً

---

(١)تفسير القرطبي(٣٩٩/٥).

(٢)إعراب القرآن وبيانه محيي الدين بن أحمد مصطفي درويش(ت/١٤٠٣هـ)، (٣٢٩/٢)، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية(دار اليمامة، دمشق، بيروت)، (دار ابن كثير، دمشق، بيروت)، ط٤، ١٤١٥هـ

(٣) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير(٢٨/٧)، اللباب في علوم الكتاب (٥٣٥/٨)

وتوفيقاً" ربي" أي المحسن إليّ بكل خير لا سيما هذا الذي أوحاه إليّ وأنزله على" إلى صراط مستقيم" أي طريق واسع بين، ثم مدحه بقوله"ديناً قيماً"أي بالغ الاعتدال والاستقامة ثابتها(١).

ونزلت هذه الآية في كفار قريش لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم مع أنهم يعبدون الأوثان وعبادتها شرك محض، فرد الله عليهم بأن إبراهيم ما كان مشركا ولم يعبد الصنم قط، وأنتم مشركون تعبدون الأوثان، فادعاؤكم أنكم على دينه بهت واختلاق، وإنما ذكرنا المجوس وأهل الكتابين مع أن الآية مكية ولا يوجد في مكة مجوس ولا يهود ونصارى وقع لهم مجادلة مع حضرة الرسول في ذلك، بل لأنهم داخلون في معنى الآية بسبب ما هم عليه من التفرقة في دينهم وتعصب بعضهم لبعض فيشملهم إطلاق لفظها، إذ لا مقيد لها، تدبر، والمعنى:"قُلْ" يا سيد الرسل موبخا مقرعا من عاندك في توحيد الله أو جادلك في إثبات الشرك بوحدانية الله المقدسة وهو مع سفه عقله وقلة إدراكه يتوقع موافقتك لاتباع دينه الباطل(٢)، فالآية اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ لِلِانْتِقَالِ مِنْ مُجَادَلَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا تَخَلَّلَهَا، إِلَى فَذْلَكَةِ مَا أُمِرَ بِهِ الرّسول صلّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ فِي هَذَا الشَّأْنِ، غَلْقًا لِبَابِ الْمُجَادَلَةِ مَعَ الْمُعْرِضِينَ، وَإِعْلَانًا بِأَنَّهُ قَدْ تَقَلَّدَ لِنَفْسِهِ مَا كَانَ يُجَادِلُهُمْ فِيهِ لِيَتَقَلَّدُوهُ وَأَنَّهُ ثَابِتٌ عَلَى مَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَأَنَّ إِعْرَاضَهُمْ لَا يُزَلْزِلُهُ عَنِ الْحَقِّ، وَفِيهِ إِيذَانٌ بِانْتِهَاءِ السُّورَةِ لِأَنَّ الْوَاعِظَ وَالْمُنَاظِرَ إِذَا أَشْبَعَ الْكَلَامَ فِي غَرَضِهِ، ثُمَّ أَخَذَ يُبَيِّنُ مَا رَضِيَهُ لِنَفْسِهِ وَمَا قَرَّ عليه قَرَارُهُ، عَلِمَ السَّامِعُ أَنَّهُ قَدْ أَخَذَ يَطْوِي سِجِلَّ الْمُحَاجَّةِ، وَلِذَلِكَ غَيَّرَ الْأُسْلُوبَ، فَأمر الرّسول صلّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ بِأَنْ يَقُولَ أَشْيَاءَ يُعْلِنُ بِهَا أُصُولَ دِينِهِ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا الدِّينَ إِنَّمَا جَاءَ بِهِ الرّسول صلّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ بِهَدْيٍ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَعَلَهُ دِينًا قَيِّمًا عَلَى قَوَاعِدِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ، إِلَّا أَنَّهُ زَائد عليه بِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عليه إِذْ هَدَاهُ إِلَى ذَلِكَ الصِّرَاطِ الَّذِي هُوَ سَبِيلُ النَّجَاةِ، وَافْتُتِحَ الْخَبَرُ بِحَرْفِ التَّأْكِيدِ لِأَنَّ الْخِطَابَ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ، وَتَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِضَافَةِ لِلِاعْتِزَازِ بمربوبية الرّسول صلّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَتَعْرِيضًا بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ أَرْبَابُهُمْ، وَلَوْ وَحَّدُوا الرَّبَّ الْحَقِيقَ بِالْعِبَادَةِ لَهَدَاهُمْ(٣).

فهذا أمر له صلّى الله عليه وسلّم بأن يبين ما هو عليه من الدين الحق الذي يدعي المفرقون أنهم عليه وقد فارقوه بالكلية، وتصدير الجملة بحرف التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونها، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أي قل يا محمد

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(٣٣٧/٧).

(٢) بيان المعاني عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (ت/١٣٩٨هـ) (٤٣٤/٣)، مطبعة الترقي، دمشق، ط١، ١٣٨٢ هـ، ١٩٦٥م.

(٣) التحرير والتنوير(٨-أ/١٩٧).

لهؤلاء المفرقين أو للناس كافة:أرشدني ربي بالوحي وبما نصب في الآفـاق والأنفـس مـن الآيات إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ موصل إلى الحق(١).

وَقَوْلُهُ:"هَدانِي رَبِّي إِلى صراط مُسْتَقِيم" تَمْثِيلِيَّةٌ شَبَّهَتْ هَيْئَةَ الْإِرْشَادِ إِلَى الحقّ المبلّغ إِلَى النّجـاة بِهَيْئَةِ مَنْ يَدُلُّ السَّائِرَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُبَلِّغَةِ لِلْمَقْصُودِ، وَالْمُنَاسَبَةُ بَيْنَ الْهِدَايَةِ وَبَيْنَ الصِّرَاطِ تَامَّةٌ، أَنَّ حَقِيقَةَ الْهِدَايَةِ التّعريف بِالطَّرِيقِ، وَحَقِيقَةُ الصِّرَاطِ الطَّرِيقُ الْوَاسِعَةُ، وَقَدْ صَـحَّ أَنْ تُـسْتَعَارَ الْهِدَايَةُ لِلْإِرْشَادِ وَالتَّعليمِ، وَالصِّرَاطُ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ، فَكَانَ تَشْبِيهًا مُرَكَّبًا قَابِلًا لِلتَّفْكِيكِ وَهُـوَ أَكْمَـلُ أَحْوَالِ التَّمْثِيلِيَّةِ، وَوُصِفَ الصِّرَاطُ بِالْمُسْتَقِيمِ، أَيِ الَّذِي لَا خَطَأَ فِيهِ وَلَا فَسَادَ، وَالْمَقْصُودُ إِتْمَـامُ هَيْئَةِ التَّشْبِيهِ بِأَنَّهُ دِينٌ لَا يَتَطَرَّقُ مُتَّبِعَهُ شَكٌّ فِي نَفْعِهِ كَمَا لَا يَتَرَدَّدُ سَالِكُ الطَّرِيقِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي لَا انْعِطَافَ فِيهَا وَلَا يَتَحَيَّرُ فِي أَمْرِهِ، فقل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو ديـن الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة ، فوفقني له(٢). و"السِّرَاطَ" بِالسِّينِ هُوَ الْأَصْلُ لِأَنَّهُ مِـنْ سَرَطَ الشَّيْءَ إِذَا بَلَعَهُ، وَسُمِّيَ الطَّرِيقُ سِرَاطًا لِجَرَيَانِ النَّاسِ فِيهِ كَجَرَيَانِ الشَّيْءِ الْمُبْتَلَعِ، فَمَـنْ قَرَأَهُ بِالسِّينِ جَاءَ بِهِ عَلَى الْأَصْلِ، وَمَنْ قَرَأَهُ بِالصَّادِ قَلَبَ السِّينَ صَـادًا لِتَجَـانُسِ الطَّـاءِ فِـي الْإِطْبَاقِ، وَالسِّينُ تُشَارِكُ الصَّادَ فِي الصَّفِيرِ وَالْهَمْسِ، فَلَمَّا شَارَكَتِ الصَّادَ فِي ذَلِكَ قَرُبَتْ مِنْهَا، فَكَانَتْ مُقَارَبَتُهَا لَهَا مُجَوِّزَةً قَلْبَهَا إِلَيْهَا لِتُجَانِسَ الطَّاءَ فِي الْإِطْبَاقِ(٣)، ثـم بـين هـذا الطريـق بقوله"دِيناً قِيَماً"عدلا لا عوج فيه بالتخفيف، وجاء في الآية الثانية من سورة الكهف"قَيِّمًا لِيُنْـذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ" آية٢، "قيما"بالتشديد وجاء معرفا ومشددا في الآية ٣٠من سورة الروم"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عليها" والآية٣٦من سورة التوبة"ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ"(٤) ووصف الدين بهذا الوصف على سبيل المبالغة، أي:هداني ربـي وعرفني ملة إبراهيم حال كونها موصوفة بالحنيفية (٥)، والمعنى:"دِيناً" أعطـاني أو عرفنـي دينا، وقوله سبحانه:"قِيَماً" مصدر كالصغر والكبر نعت به مبالغة، وجوز أن يكـون التقـدير ذا قيم، وهو على ما قيل أبلغ من المستقيم باعتبار الهيئة، والمستقيم أبلغ منـه باعتبـار مجمـوع المادة والهيئة، ولا فرق بين القيم والمستقيم في أصل المعنى عند الكثير، وفسروا القيم بالثابـت المقوم لأمر المعاش والمعاد، وجعلوا المستقيم من استقام الأمر بمعنى ثبت وإلا لا يتـأتى مـا ذكر، وقيل:المستقيم مقابل المعوج والقيم الثابت الذي لا ينسخ(٦)، وَاخْتَلَفُوا فِي"دِينًا قِيَمًـا"فَقَـرَأَ

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني (٣١١/٤)

(٢)تفسير الطبري (٢٨١/١٢)، التحرير والتنوير(٨-أ/١٩٧).

(٣)التبيان في إعراب القرآن(٨/١).

(٤)بيان المعاني عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني(ت/١٣٩٨هـ)(٤٣٤/٣)

(٥)مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير(٢٨/٧)

(٦) تفسير الألوسي = روح المعاني(٣١١/٤).

ابْنُ عَامِرٍ، وَالْكُوفِيُّونَ بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْيَاءِ مُخَفَّفَةً، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِ الْيَاءِ مُشَدَّدَةً (١)، و"قيما"صفة مشتقة وزنها فعل بكسر الفاء وفتح العين مخففة من تشديد "قيم" بفتح القاف وكسر الياء المشددة، وفي اللفظ قيم إعلال بالقلب، أصله قيوم بسكون الياء وتحريك الواو اجتمعت الواو والياء والأولى هي الياء ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت الياءان معا، ثم خفف اللفظ إلى قيم بكسر الفاء وفتح الياء، "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة(٢)، وبالجملة فاتباع الآباء واقتفاء آثار السابقين من الذين هداهم الله عن بينة ودليل هو سبيل الهداية كما قال تعالى بعد أن ذكر أنبياء الله الذين هداهم من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس، ولوطاً ومن آبائهم وذرياتهم، قال تعالى "أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عليه أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ"الأنعام٩٠(٣)، و"مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"نصب بتقدير أعني أو عطف بيان لدينا بناء على جواز تخالف البيان والمبين تعريفا وتنكيرا "حَنِيفاً" أي مائلا عن الأديان الباطلة أو مخلصا لله تعالى في العبادة وهو حال من إبراهيم(٤)، والمراد:أي دين إبراهيم وهو الإسلام، فَإِنَّ اللهَ سَمَّى الْإِسْلَامَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَمَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَامْتَنَّ عَلَى الْعَرَبِ بِأَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِمِلَّةِ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ(٥)، وقوله"وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"جملة معترضة مقررة لنزاهته عليه الصلاة والسلام عما عليه المبطلون، وقيل:عطف على ما تقدم، وفيه رد على كفار قريش لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم فأخبر سبحانه أنه لم يكن ممن يعبد الأصنام، أي ما كانَ إبراهيمُ عليه السلام على دينِ المشركين، وأضافَ هذا الدينَ إلى إبراهيم؛لأن إبراهيمَ كان مُعَظّماً في عُيُونِ العرب، وفي قلوب سائرِ أهل الأديَان؛إذ أهلُ كلِّ دينٍ يزعمون أنَّهم يُبَجِّلُونَ دينَ إبراهيم عليه السلام(٦)، إذن فالإسلام دين شائع، والمسلمون كلمة شائعة في الأديان، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصَّلَاة وَالسَّلَام ُفقط، إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله في منهج جاء به رسل مؤيدون بالمعجزات، إلاّ أن الإسلام بالنسبة لهذه

---

(١) النشر في القراءات العشر شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت/٨٣٣هـ)، (٢٦٧/٢)ت/على محمد الضباع(ت/١٣٨٠هـ)، الناشر:المطبعة التجارية الكبرى[تصوير دار الكتاب العلمية]

(٢) الجدول في إعراب القرآن(٣٤٧/٨).

(٣) الإيمان بالقدر على محمد محمد الصَّلاَّبي، (ص١٥٤، بترقيم الشاملة آليا)، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر(٢٧١ صفحة)، دار المعرفة للطباعة والنشر(٤٠٨صفحة)، ط١

(٤) تفسير الألوسي=روح المعاني(٣١١/٤)، بيان المعاني(٤٣٤/٣).

(٥) أيسر التفاسير جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، (١٤٨/٢)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، تفسير المنار(٣٤٥/٦).

(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن أبو الطيب محمد صديق خان(٢٩١/٤)، تفسير القرآن العظيم (المنسوب) للإمام الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت/٣٦٠هـ)، (ص: ٠)، المصدر:الشاملة الذهبية، تفسير الألوسي = روح المعاني(٣١١/٤).

الرسالات كان وصفا، لكن أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم تميزت بديمومة الوصف لدينها كما كان لأمم الرسل السابقة، وصار الإسلام أيضا علما لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم، لأن رسالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم تضمنت منتهى ما يوجد من إسلام في الأرض، فلم يعد هناك مزيد عليها، وانفردت أمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم بأن صار الإسلام علما عليها، إذن فالإسلام في الأمم السابقة كان وصفا، وأما بالنسبة لرسالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّم فقد صار علما لأنه لم يأت بعدها دين، فإسلامها إسلام عالمي، ولذلك فنحن بهذا الدين نقول نحن مسلمون، أما أصحاب الديانات الأخرى فهم أيضا مسلمون لكن بالوصف فقط، نحن الذين نتبع الدين الخاتم سمانا الله في كتابه المسلمين فهذا من إعجازات التسمية التي وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه"وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِه هُوَ اجتباكم وَمَا جَعَلَ عليكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عليكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس"الحج٧٨(١)، فليس من الضروري أن يكون أمر اتباع ملة إبراهيم الحنيفية عليه السلام دليلاً على أن إبراهيم أكمل منه في ذلك، فالنبي عليه الصلاة والسلام، قد جسد هذه الملة تجسيدًا عظيمًا، وبلغ بها كمالًا تامًا لم يسبق إليه أحد، ولهذا السبب كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهبه جميع الخلق حتى إبراهيم الخليل عليه السلام.

فالآية بدأت بـ "قُلْ إِنَّنِي"، مما يدل على أهمية الإخبار الشخصي والتأكيد على الهداية من الله، وقوله"صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" يعبر عن الوضوح والثبات في الدين، وهو يعكس المفهوم البلاغي للوضوح في الرؤية الدينية، وكما أن استخدام كلمة "قِيَمًا" يشير إلى العمق الأخلاقي والروحي في الدين، مما يبرز أهمية المبادئ وليس فقط الشعائر، والانتساب إلى إبراهيم عليه السلام بقوله"مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ" يضيف بعدًا تاريخيًا، حيث يتصل المؤمن بأحد أعظم الأنبياء، مما يعزز الهوية الإسلامية، ثم تحدثت الآية عن البراءة من الشرك بقوله"وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" وهذا يعكس التميز والتفرد في الإيمان، ويعبر عن الانفصال عن أي معتقدات باطلة، وباختصار الآية تجسد بلاغة التعبير عن الهداية، وتبرز القيم الأخلاقية ، وتؤكد الانتماء إلى التوحيد، مما يحقق توازنًا بين الفهم العقلي والروحي

(١) تفسير الشعراوي (١٣٥٦/٣)

الآية السادسة: وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ علينَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ" سورة يوسف٣٨

لما كان تركه لملة هؤلاء القوم، يقتضى دخوله في ملة قوم آخرين، تراه يصرح بالملة التي اتبعها فيقول:وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي الكرام المؤمنين بوحدانية الله وبالآخرة وما فيها من حساب وجزاء إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ، وهى الملة الحنيفية وتكريرهم للتوكيد وذكر الآباء ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في اتباع قوله، والمراد به ترك الابتداء لا أنه كان فيه ثم تركه(١)، وإنما حاز هذه الكمالاتِ وفاز بتلك الكراماتِ بسبب أنه اتبع ملةَ آبائِه الكرامِ ولم يتبع ملةَ قومٍ كفروا بالمبدأ والمعاد وإنما قاله عليه السلام ترغيباً لصاحبيه في الإيمان والتوحيدِ وتنفيراً لهما عما كانا عليه من الشرك والضلالِ، وقُدّم ذكرُ تركِه لملّتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية(٢)، والمعنى:هَجَرْتُ طَرِيقَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَسَلَكْتُ طَرِيقَ هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عليهِمْ أَجْمَعِينَ، وَهَكَذَا يَكُونُ حَالُ مِنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَاتَّبَعَ طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، وَيَجْعَلُهُ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي الْخَيْرِ وَدَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ(٣)، وهو دين التوحيد لله، ما يصحّ لنا أن نشرك بالله غيره، وهو المنفرد بالوحدانية، ذلك التوحيد والإيمان الَّذي أنا عليه وآبائي هو من فضل الله علينا أن وفقنا له، ومن فضله على الناس جميعًا حين بعث إليهم الأنبياء به، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على نعمه، بل يكفرونه(٤)، وسماهم جميعًا آباء؛لأنَّ الأجدادَ آباء، وقدَّمَ الجد الأعلى ثم الجدَّ الأقرب، ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده، ثم تلقاها عنه إسحاق، ثم يعقوبُ، وفي ذكر ذلك ترغيب لصاحبيه في الإيمان بالله والتوحيد، وتنفير لهما عما هما فيه من الشرك والضلال، ثم بيَّن أساسَ الملة التي وَرِثَها عن أولئك الآباءِ الكرام، فكانت يقينًا له بقوله"مَا كَانَ"؛أي ما صحَّ ، وما استقام، فضلًا عن الوقوع، "لَنَا"معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا، ووفور علومنا"أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ"؛أي:شيء كان من ملك أو جنيٍّ أو إنسي فضلًا عن الجماد الذي لا يضر ولا ينفع؛فلا ينبغي لنا مَعْشرَ الأنبياء أن نشرك بالله شيئًا فنتخذه ربًّا مدبرًا معه، ولا إلَهًا معبودًا من الملائكة، أو البشر كالفراعنة فضلًا

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٣٦١/٧)، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت/٧١٠هـ)، (١١١/٢)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف على بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م

(٢)تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢٧٧/٤)

(٣)مختصر تفسير ابن كثير (اختصار وتحقيق) محمد على الصابوني(٢٥٠/٢)، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط٧، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م

(٤)المختصر في تفسير القرآن الكريم جماعة من علماء التفسير، (٢٤٠/١)، إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط٣، ١٤٣٦هـ

عمَّا دونهما من البقر، كالعجل أو من الشمس والقمر أو ما يُتَّخَذُ من التماثيل والصور لهذه الآلهة(١)، ففي الآية يظهر بوضوح التزام النبي صلي الله عليه وسلم بملة آبائه الكرام، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، الذين آمنوا بوحدانية الله وبالآخرة، كما تُظهر أن التخلية عن الكفر تسبق التحلية بالإيمان، ومن يسلك طريق الهدى ويعرض عن الضلال يُهدي الله قلبه ويجعله إمامًا في الخير، وتؤكد على أن التوحيد هو الدين الحق، وأن شكر الله على نعمه هو واجب، وأن أصل الملة يعود إلى إبراهيم، مما يدعم دعوته للإيمان من خلال تأكيد حقيقة وحدانية الله.

يقول الإمام الرازي:وَفِي الآيةِ سُؤَالَاتٌ:السُّؤَالُ الْأَوَّلُ:مَا الْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ هَذَا الْكَلَامِ، الْجَوَابُ: أَنَّهُ عليه السَّلَامُ لَمَّا ادَّعَى النُّبُوَّةَ وَتَحَدَّى بِالْمُعْجِزَةِ وَهُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ قَرَنَ بِهِ كَوْنَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَأَنَّ أَبَاهُ وَجَدَّهُ وَجَدَّ أَبِيهِ كَانُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ وَرُسُلَهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَتَى ادَّعَى حِرْفَةَ أَبِيهِ وَجَدِّهِ لَمْ يُسْتَبْعَدْ ذَلِكَ مِنْهُ، وَأَيْضًا فَكَمَا أَنَّ دَرَجَةَ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَانَ أَمْرًا مَشْهُورًا فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا ظَهَرَ أَنَّهُ وَلَدُهُمْ عَظَّمُوهُ وَنَظَرُوا إِلَيْهِ بعين الإجلال، فكان انقيادهم له أتم وَتَأَثُّرُ قُلُوبِهِمْ بِكَلَامِهِ أَكْمَلَ، السُّؤَالُ الثَّانِي: لَمَّا كَانَ نَبِيًّا فَكَيْفَ قَالَ"إِنِّي اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي"، وَالنَّبِيُّ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ مُخْتَصًّا بِشَرِيعَةِ نَفْسه، قُلْنَا:لَعَلَّ مُرَادَهُ التَّوْحِيدُ الَّذِي لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَأَيْضًا لَعَلَّهُ كَانَ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ عَلَى شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ، السُّؤَالُ الثَّالِثُ:لِمَ قَالَ"ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ" وَحَالُ كُلِّ الْمُكَلَّفِينَ كَذَلِكَ؟، والجواب:ليس المراد بقوله"مَا كَانَ لنَا"أنَّهُ حرَّم ذلك عليهم، بل المرادُ أنه تبارك وتعالى طهَّره، وطهر آباءه عن الكفر؛كقوله"مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ من وَلَدٍ"مريم٣٥، السُّؤَالُ الرَّابِعُ: مَا الْفَائِدَةُ فِي قَوْلِهِ"مِنْ شَيْءٍ"، الْجَوَابُ:أَنَّ أَصْنَافَ الشِّرْكِ كَثِيرَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ النَّارَ، وَمِنْهُمْ من يعبد الْكَوَاكِبَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْعَقْلَ وَالنَّفْسَ وَالطَّبِيعَةَ، فَقَوْلُهُ "مَا كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ"رَدٌّ عَلَى كُلِّ هَؤُلَاءِ الطَّوَائِفِ وَالْفِرَقِ، وَإِرْشَادٌ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا مُوجِدَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا رَازِقَ إِلَّا اللَّه(٢)، وَجُمْلَةُ "مَا كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ"فِي قُوَّةِ الْبَيَانِ لِمَا اقْتَضَتْهُ جُمْلَةُ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي مِنْ كَوْنِ التَّوْحِيدِ صَارَ كَالسَّجِيَّةِ لَهُمْ عرف بهَا أسلافه بَيْنَ الْأُمَمِ، وَعَرَّفَهُمْ بِهَا لِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الْفُرْصَةِ، وَلَا يَخْفِي مَا تَقْتَضِيهِ صِيغَةُ الْجُحُودِ مِنْ مُبَالَغَةِ انْتِفَاءِ الْوَصْفِ عَلَى الْمَوْصُوفِ، ومِنْ فِي قَوْلِهِ "مِنْ شَيْءٍ"مَزِيدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ، وَأُدْخِلَتْ عَلَى الْمَقْصُودِ بِالنَّفْيِ أي: ما كان لنا أهل هذا البيت الكريم أن نشرك بالله شيئا من الإشراك،

(١)تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٤٢٢/١٣)

(٢)مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير(٤٣/٩)، اللباب في علوم الكتاب(١٠٣/١١)

قليلا ذلك الشيء أو حقيرا(١)، ثم لوح إلى التحذير من يوم الجزاء بقوله"مــن شـــيء"أي بما شرعه لنا من الدين القويم كانت ملتنا التوحيد، ومن التأكيد العموم في سياق النفي، لــيعم ذلــك كل شيء من عاقل ملك أو إنسي أو جني أو غيره؛ثم علل ذلك بما يعرف به أنه كمـا وجــب عليهم ذلك وجب على كل أحد فقال"ذلك"أي كان هذا الانتفاء أو ذلك التــشريع للملــة الحنيفيــة وتسهيلها وجعل الفطر الأولى منقادة لها مقبلة عليها-العلى الشأن العظيم المقــدار"مــن"أجــل "فضل الله"أي المحيط بالجلال والإكرام "علينا"خاصة" وعلى الناس"الذين هم إخواننا في النــسب عامة، فنحن وبعض الناس شــكرنا الله، فقبلنـــا مـــا تفــضل بـــه علينـــا، فلــم نــشرك بـــه شيئاً؛والفضل:النفع الزائد على مقدار الواجب، فكل عطاء الله فضل، فإنـــه لا واجــب عليـــه، فكان لذلك واجباً على كل أحد إخلاص التوحيد له شكراً على فضله لما تظافر عليه دليلاً العقل والنقل من أن شكر المنعم واجب"ولكن أكثر الناس"أي لما لهم من الاضطراب مع الهوى عموا عن هذا الواجب، فهم"لا يشكرون"فضله بإخلاص العمل له ويــشركون بـــه إكراهـــاً لفطـــرهم الأولى، فالآية من الاحتباك: ذكر نفي الشرك أولاً يدل على وجوده ثانياً، وذكر نفـــي الــشكر ثانياً يدل على حذف إثباته أولاً(٢)، وقوله:"وَعَلَى الناس" كافةً بواسطتنا وحيث عبّر عن ذلــك بذلك العنوان عبّر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر فقيل"ولكن أَكْثَرَ النـــاس لاَ يــشكرون"أي لا يوحّدون فإن التوحيدَ مع كونه من آثار ما ذُكر من التَّأْييدِ شكرٌ لله عز وجل على النعمةِ وإنمـــا وضْعِ الظاهِرِ موضعَ الضَّميرِ الراجعِ إلى الناس لزيادة توضيحٍ وبيانٍ ولقطع تـــوهمِ رجوعِـــه إلى المجموع المُوهمِ لعدم اختصاصِ غير الشاكرِ بالناس، وقيل ذلك التوحيـــدُ مـــن فـــضل الله علينا حيث نصَب لنا أدلةً ننظر فيها ونستدلّ بها على الحق وقد نصَب مثلَ تلك الأدلةِ لـــسائر الناس أيضاً ولكن أكثرَهم لا ينظرون ولا سيتدلون بها اتّباعاً لأهوائهم فيبقَـــوْن كـــافرين غيـــرَ شاكرين، ولك أن تقول ذلك التوحيدُ من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولاً ومشاعرَ نستعملها في دلائلِ التوحيد التي مهدها في الأنفسِ والآفاقِ وقَد أعطى سائرَ الناس أيـــضاً مثلهـــا ولكـــن أكثرَهم لاَ يَشْكُرُونَ أي لا يصرِفون تلك القُوى والمشاعرَ إلى ما خُلقت هي له ولا يـــستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيدِ الآفاقيةِ والأنفُسية والعقليةِ والنقلية(٣)، وأتى بالاستدراك بِقَوْله"وَلَكِـــنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ"لِلتَّصْرِيحِ بِأَنَّ حَالَ الْمُخَاطَبِينَ فِي إِشْرَاكِهِمْ حَالُ مَنْ يَكْفُرُ نِعْمَـــةَ اللَّـــه، وأَنَّ إِرْسَالَ الْهُدَاةِ نِعْمَةٌ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ النَّاسُ فِيهَا فَيَعْلَمُوا أَنَّ مَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ خَيْرٌ وَإِنْقَاذٌ لَهُـــمْ

(١)التحرير والتنوير(٢٧٣/١٢)
(٢)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(٨٣/١٠)
(٣)تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢٧٧/٤)

منَ الِانْحِطَاطِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَلِأَنَّ الْإِعْرَاضَ عَنِ النَّظَرِ فِي أَدِلَّةِ صِدْقِ الرُّسُلِ كُفْرٌ بِنِعْمَةِ الْعقل وَالنَّظَرِ(١)، والآية الكريمة تحمل معاني بلاغية غنية، فقوله "وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي" تعبر عن الفخر والاعتزاز بالتراث الديني، مما يعكس أهمية الهوية العائلية والاجتماعية في بناء القيم، وكما أن ذكر "إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ" يؤكد على التقاليد النبوية المتصلة، ويعزز القيمة التاريخية للدين، وبراءة من الشرك بقوله"مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّه" والتي تعكس قوة الإيمان والرفض القاطع للشرك، مما يعبر عن التوحيد كقيمة أساسية، وقوله"ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ علينَا" يشير إلى النعمة الإلهية، ويُبرز أهمية الشكر والامتنان لله، وفي الإشارة إلى الكثرة بقوله"وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ"تعبر عن الواقع المؤلم، حيث يُظهر البلاغة في التباين بين القلة الشاكرة والكثرة الناكرة، فالآية تجسد بلاغة الاعتزاز بالهوية الدينية، والوعي بنعمة الله، وتؤكد على ضرورة الشكر والإيمان بالتوحيد.

الآية السابعة:"ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"النحل ١٢٣

مناسبة الآية لما قبلها: الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعضاً من صفات الخليل إبراهيم من كونه أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، وأنه شاكر لأنعمه، واجتباه ربه وهداه قال"ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ"أي: كأن قمة مناقب إبراهيم وحسناته أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل أن تتبع ملته(٢)، وقيل:لما ختم سبحانه هذه النعم التي منحها لخليله إبراهيم، أمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملة أبيه إبراهيم عليه السلام فقال تعالى"ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ"، أَيْ وَمِنْ كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَصِحَّةِ تَوْحِيدِهِ وَطَرِيقِهِ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ وَسَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ، والمراد بملة إبراهيم:شريعته التي أمره الله تعالى باتباعها في عقيدته وعبادته ومعاملاته، وهي شريعة الإسلام، التي عبر عنها آنفا بالصراط المستقيم في قوله تعالى"اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"النحل ١٢١، والمراد باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم له في ذلك:الاقتداء به في التوحيد وفي أصول الدين، الثابتة في كل الشرائع، لا الفروع الشرعية التي تختلف من شريعة إلى أخرى، بحسب المصالح التي يريدها الله تعالى لعباده، أى:ثم أوحينا إليك أيها الرسول الكريم بأن تتبع في عقيدتك وشريعتك(٣)، وفي" ثم"هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجلال محله، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلّ ما أولى من النعمة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته، من قبل أنها

(١)التفسير الوسيط لطنطاوي (٣٦١/٧)، التحرير والتنوير(٢٧٣/١٢)

(٢)تفسير الشعراوي (٨٢٧٧/١٣).

(٣)التفسير الوسيط لطنطاوي(٢٥٩/٨)، مختصر تفسير ابن كثير(٣٥١/٢).

دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها(١)، فهي في أصل وصفها تفيد ذلك التراخي المعطوف عليه في الزمان ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المنزلة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمخ محلا ممّا عطف عليه(٢)، وقوله"أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ كَانَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ وَإِرْشَادٍ صَادِقٍ، وتَعْرِيضًا بِأَنَّ الَّذِينَ زَعَمُوا اتِّبَاعَهُمْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلُ قَدْ أَخْطَأُوهَا(٣)، و"أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ"الحنيفية المسلمة البريئة من عبادة الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك، كما تبرأ إبراهيم من مثلها من قبل، فأنت متبع له، وسائرٌ على طريقته، وقومك ليسوا كذلك، لأنهم يحللون ويحرمون من عند أنفسهم، "وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، بل كان قدوة الموحدين، وهو تكريرٌ لما سبق لزيادة تأكيد، وتقريرٌ لنزاهته عليه السلام عمَّا هم عليه من عقيدةٍ وعملٍ، وفيها دلالةٌ واضحةٌ في أنَهُ أرادَ التوحيدَ دونَ فروعِ دينهِ وعباداته (٤)، وَلَا خِلَافَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُغَايِرْ بَيْنَ الشَّرَائِعِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْمَكَارِمِ وَالْمَصَالِحِ، وَإِنَّمَا خَالَفَ بَيْنَهَا فِي الْفُرُوعِ بِحَسْبِ مَا عَلِمَهُ سُبْحَانَهُ(٥).

يقول الإمام القرطبي: أَمَرَ بِاتِّبَاعِهِ فِي مَنَاسِكَ الْحَجِّ كَمَا عَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ جِبْرِيلُ عليهمَا السَّلَامُ ، وقيل: أَمَرَ بِاتِّبَاعِهِ فِي التَّبَرُّؤِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالتَّزَيُّنِ بِالْإِسْلَامِ، وَقِيلَ:أَمَرَ بِاتِّبَاعِهِ فِي جَمِيعِ مِلَّتِهِ إِلَّا مَا أَمَرَ بِتَرْكِهِ، وَالصَّحِيحُ الِاتِّبَاعُ فِي عَقَائِدِ الشَّرْعِ دُونَ الْفُرُوعِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى"لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً"المائدة٤٨، وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدى إلى الصواب، ولا درك على الفاضل في هذا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء، وقد أمر بالاقتداء بهم، قال تعالى"أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ"الأنعام ٩٠(٦)، وبالجملة فإن قوله تعالى"ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا" فيه ثلاثة أمور بيانية تجب الإشارة إليها:الأمر الأول:في قوله تعالى"ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا" فيه أن ما يدعوكم إليه من عدم الشرك هو وحي من اللَّه باتباع إبراهيم الذي يعتزون به، فذلك الوحي هو مما تفخرون وتعتزون فلا تنافروا الداعي ولا تعادوه، وهو على ملة إبراهيم فسيروا في مفاخركم

(١)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(٦٤٣/٢).

(٢)الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل بهجت عبد الواحد صالح، (٢٣٠/٦)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط٢، ١٤١٨هـ.

(٣)من لطائف وأسرار(تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور)(٣١٨/١٤)من خلال تفسيره"تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"(نسخة مختصرة للطائف)، محمد الطاهر بن عاشور (ت/١٣٩٣هـ)، جمع وترتيب/العاجز الفقير:عبد الرحمن القماش

(٤)تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن(٤١٩/١٥)، الواضح في أصول الفقه أبو الوفاء، على بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، (ت/٥١٣هـ)، (١٧٩/٤)، ت/د/عَبد الله بن عَبد المُحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م

(٥)أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (ت/٥٤٣هـ)، (١٢٣/٤)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م

(٦)تفسير القرطبي(١٩٨/١٠/١٩٩).

باتباعها، وهو مائل عن الشرك غير منحرف إليه، الأمر الثاني:التعبير بـ"ثُمَّ" فإن مؤداها أن إيحاء اللَّه لنبيه صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم هو سمو بإبراهيم أعلى من كل ما سبق، لأن المؤدى في كلمة "ثُمَّ" التي تفيد التراخي أنه سما الأمر بإبراهيم أنه علا حتى صار محمد سيد الخلق تابعا له في ملته، فالتراخي هنا معنوي بالعلو بين مرتبة خاتم النبيين ومرتبة سيدنا إبراهيم، وإنه جده، ولكن محمد فخر نبي عدنان وفخر الإنسانية كلها، وإنما تفيد ذلك لأن"ثُمَّ"في أصل وصفها التراخي المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى مرتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى وها هنا ما هو أعلى من ذلك كله قدرا وأرفع مرتبة، وأبعد رفعة، وهو أن النبي الأُميّ صلى الله عليه وسلم الذي هو سيد البشر متبع ملة إبراهيم مأمور باتباعه بالوحي متلو أمره بذلك في القرآن الكريم العظيم، ففي ذلك تعظيم لهما لكن نصيب النبي صلى الله عليه وسلم من هذا التعظيم أوفر وأكبر، الأمر الثالث:أن قوله تعالى"أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ"، "أن"هنا بيانية، أي تبين معنى الوحي، فقوله تعالى اتبع ملة إبراهيم تفسير لـ أوحينا، فهي أمر باتباع ملة إبراهيم، وقد ختم اللَّه تعالى النص بقوله تعالى"وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"وهذا تحريض للمشركين على منع الشرك؛لأن إبراهيم لم يكن مشركا من وقت نشأته غلاما صبيا إلى أن توفي بعد عمر مبارك طويل مديد عليه السلام(١)، فقوله" ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ" يُظهر طريقة التواصل المباشرة من الله إلى النبي، مما يعكس أهمية الوحي كوسيلة لنقل الرسالة، وفي الآية الدعوة إلى اتباع الحق "اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ" وتعبر عن التوجيه النبوي للاقتداء بالنموذج الإيماني، مما يُبرز القيمة العالية للتقليد الديني الصحيح، واستخدام كلمة"حَنِيفًا"يُعبر عن الاستقامة والابتعاد عن الانحراف، مما يدل على الطهر والصفاء في العقيدة، وقوله"وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"تعكس الفكرة القوية للاحتجاج ضد الشرك، مما يبرز أهمية التوحيد في الإسلام، فالآية تعزز الهوية الإسلامية من خلال الربط بين النبي إبراهيم عليه السلام ومبدأ التوحيد، مما يُعطي معنى عميقًا للانتماء، وتجسد بلاغة الدعوة إلى التوحيد والاتباع الخالص لله، مما يعكس أهمية الهوية الدينية.

(١)زهرة التفاسير(٨/٤٣٠٠).

الآية الثامنـــة: "وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ علىكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَـــرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا علىكُمْ وَتَكُونُـــوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَـــوْلَى وَنِعْـــمَ النَّصِيرُ" سورة الحج٧٨

بعد أن أمر سبحانه بالصلاة وبالعبادة وبفعــل الخيــر، أتبــع ذلــك بــالأمر بالجهــاد فقــال تعالى"وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ"، فأمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبــر، والجهاد مأخوذ من الجهد، وهو بذل أقصى الطاقة في مدافعة العدو، وهي أنـــواع، أعظمهـــا جهاد أعداء الله تعالى من الكفار والمنافقين والظالمين والمبتدعين في دين الله تعالى مـــا لـــيس منـــه، كـــذلك مـــن أنـــواع الجهـــاد جهـــاد الـــنفس الأمـــارة بالـــسوء، وجهـــاد الـــشيطان، وإضافة"حق"إلى"جهاد"في قوله"حَقَّ جِهَادِهِ، وكان القياس:حق الجهاد فيه، أو حق جهادكم فيـــه، كما قال وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ؟، وذلك لأن الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلمـــا كـــان الجهاد مختصا بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله، صحت إضافته إليـــه، فهـــو مـــن إضافة الصفة إلى الموصوف أى: وجاهدوا أيها المؤمنون في سبيل الله تعالى ومن أجل إعلاء كلمته، ونصر شريعته، جهـــادا كـــاملا صـــادقا لا تـــردد معـــه ولا تراجـــع، وجملـــة"هـــو اجتباكم"مستأنفة، لبيان علة الأمر بالجهاد، وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ بِالْمُجَاهَـــدَةِ، والاجتبـــاء:الاختيـــار والاصطفاء، أى:جاهدوا أيها المؤمنون من أجل إعلاء كلمة الله، لأنـــه ســـبحانه هـــو الـــذي اختاركم للذب عن دينه، واصطفاكم لحرب أعدائه، وجدير بمن اختاره الله واصطفاه أن يكـــون مطيعا له، ثم بين سبحانه بعض مظاهر لطفه بعباده فقال"وَما جَعَلَ عليكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَـــرَجٍ"، أى ومن مظاهر رحمته بكم أيها المؤمنون أنه سبحانه لم يشرع في هذا الدين الذي تدينون بـــه ما فيه مشقة بكم، أو ضيق عليكم، وإنما جعل أمر هذا الدين، مبنى علـــى اليـــسر والتخفيـــف ورفع الحرج، ومن قواعده التي تدل على ذلك:أن الضرر يزال، وأن المشقة تجلـــب التيـــسير، وأن اليقين لا يرفع بالشك، وأن الأمور تتبع مقاصدها، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب مـــا قبلها من ذنوب، والخلاصة:أن هذا الدين الذي جاءنا به محمد صلّى الله عليه وسلّم مـــن عنـــد ربه عز وجل مبنى على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج، والذين يجدون فيه ضيقا وحرجا، هم الناكبون عن هديه، الخارجون على تعاليمه، وقيل:فيـــه فـــسح بـــأنواع الـــرخص والكفارات والديات، ونحوه قوله تعالى"يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُـــمُ الْعُـــسْرَ "البقـــرة١٨٥، وأمّة محمد صلى الله عليه وسلم هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك فـــي الكتـــب المتقدمـــة، والمراد بالملة في قوله تعالى"مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ"الدين والشريعة، أي: مـــا جعـــل علـــيكم أيهـــا

المؤمنون في دينكم من حرج، ووصف سبحانه إبراهيم عليه السلام بالأبوة لهذه الأمة ، لأن رسول هذه الأمة صلّى الله عليه وسلّم ينتهي نسبه إلى إبراهيم، ورسول هذه الأمة صلّى الله عليه وسلّم كالأب لها، من حيث إنه صلّى الله عليه وسلّم جاءها من عند ربه عز وجل بما يحييها ويسعدها، والضمير"هو"في قوله تعالى"هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا"يعود إلى الله تعالى أي: هو سبحانه الذي سماكم المسلمين من قبل نزول هذا القرآن، وسماكم أيضا بهذا الإسلام في هذا القرآن، وقيل:الضمير"هو"يعود إلى إبراهيم أى: إبراهيم هو الذي سماكم المسلمين، ومن وجوه ضعف هذا القول:أن الله تعالى قال"وَفِي هذا"، أي سماكم المسلمين، في هذا القرآن، وإبراهيم عليه السلام لحق بربه قبل نزول هذا القرآن بأزمان طويلة، وأيضا فإن السياق يؤيد أن الضمير"هو"يعود إلى الله تعالى لأن الأفعال السابقة كقوله"هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عليكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"تعود إليه عز وجل، ثم بين سبحانه أسباب هذا الاجتباء والاصطفاء فقال"لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عليكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ"والمراد بشهادة الرسول على أمته:الإخبار بأنه قد بلغهم رسالة ربه، والمراد بشهادة هذه الأمة على غيرها من الناس:الإخبار بأن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى هؤلاء الناس، قد بلغوهم رسالة ربهم، ونصحوهم بإخلاص العبادة لله وحده(١).

وقيل:أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ بِأَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغَتْهُمْ، وَإِذْ قَدْ خَصَّكُمْ بِهَذِهِ الْكَرَامَةِ وَالْأَثَرَةِ فَاعْبُدُوهُ وَثِقُوا بِهِ وَلَا تَطْلُبُوا النُّصْرَةَ وَالْوِلَايَةَ إِلَّا مِنْهُ فَهُوَ خَيْرُ مَوْلًى وَنَاصِرٍ(٢)

يقول الإمام الزمخشري:"وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ"، أي جهاداً فيه حقًّا خالصاً لوجهه فعكسَ وأضيف الحقُّ إلى الجهادِ مبالغةً كقولِك هو حقٌّ عالمٌ وأُضيف الجهادُ إلى الضَّمير اتِّساعاً أو لأنَّه مختصٌّ به تعالى من حيثُ أنَّه مفعولٌ لوجهِه ومن أجلِه"هُوَ اجتباكم"أي هو اختاركُم لدينِه ونصرتِه لا غيرُه وفيه تنبيهٌ على ما يقتضي الجهادَ ويدعُو إليه، "وَمَا جَعَلَ عليكمْ في الدين مِنْ حَرَجٍ" أي ضيقٍ بتكليفِ ما يشقُّ عليكم إقامتُه إشارة إلى أنَّه لا مانعَ لهم عنْهُ ولا عذرَ لهم في تركِه أو إلى الرُّخصةِ في إغفالِ بعضِ ما أمرَهم به حيث يشقُّ عليهم لقولِه صلى الله عليه وسلم إذا أمرتُكم بشيءٍ فأتُوا منه ما استطعتُم(٣)، وقيل ذلك بأنْ جعلَ لهم من كلِّ ذنبٍ مخرجاً بأنْ رخَّص لهم في المضايقِ وفتحَ لهم بابَ التَّوبةِ وشرَع لهم الكفَّاراتِ في حقوقِه والدِّياتِ في

(١)التفسير الوسيط لطنطاوي(٣٤٦/٩ـ ٣٤٧)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(١٧٣/٣)

(٢)البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٣٩).

(٣)المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت/٢٦١هـ)(٩٧٥/٢)، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت

حقوقِ العبادِ، "مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم" نُصب على المصدرِ بفعلٍ دلَّ عليه مضمونُ ما قبلَــه بحــذفِ المضافِ أي وسع عليكم دينَكم توسعةَ ملَّةِ أبيكم أو على الإغراءِ أو على الاختــصاصِ وإنَّمــا جعله أباهم لأنَّه أبوُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهو كالأبِ لأمَّته من حيــثُ أنَّــه ســببٌ لحياتِهم الأبديَّةِ ووجودهم على الوجه المعتدِّ به في الآخرةِ أو لأنَّ أكثرَ العربِ كانوا من ذريته صلى الله عيه وسلم فغُلِّبُوا على غيرهم "هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ"، "فأقيموا الصلاة وآتَــوْا الزَّكَاةَ" أي فتقرَّبُوا إلى الله بأنواع الطاعات وتخصيصهما بالذكر لأنافتهما وفضلهما(١)، وَفِــي قَوْلِهِ"هُوَ اجْتَباكُمْ" أَيْ اخْتَارَكُمْ لِتَحَمُّلِ تَكْلِيفَاتِهِ وَفِي قَوْلِهِ"هُوَ"تَفْخِيمٌ وَاخْتِصَاصٌ، أَيْ هُوَ لَا غَيْرُهُ، "مِنْ حَرَجٍ" مِنْ تَضْيِيقٍ بَلْ هِيَ حَنِيفِيَّةٌ سَمْحَةٌ لَيْسَ فِيهَا تَشْدِيدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَلْ شُرِعَ فِيهَا التَّوْبَةُ وَالْكَفَّارَاتُ وَالرُّخَصُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي"هُوَ سَمَّاكُمُ"عَائِدٌ عَلَى إِبْراهِيمَ وَهُوَ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ وَلِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ فَقَالَ رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّــةً مُــسْلِمَةً لَكَ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فَجَعَلَهَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٢)، فمن السهل على كل إنــسان أن يتشدّد في الدين ما شاء، وأن يصدر الأحكام المضيقة على المسلمين، وليس فــي ذلــك كبيــر فائدة، ولكن المطلوب، والذي لا يضطلع به إلا كل ذي قدرة متفوقــة، وعقــل راجــح، هــو التسهيل على المسلمين، وإيجاد المخارج من المآزق، والحلول الناجعــة، للــشؤون الطارئــة، والمشاكل المستحدثة(٣).

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْحَرَجِ الَّذِي رَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى، قيل:هُوَ مَا أَحَلَّ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَــاثَ وَرُبَاعَ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، وَقِيلَ:الْمُرَادُ قَصْرُ الصَّلَاةِ، وَالْإِفْطَارُ لِلْمُسَافِرِ، وَصَلَاةُ الْإِيمَاءِ لِمَنْ لَــا يَقْدِرُ عَلَى غَيْرِهِ، وَحَطُّ الْجِهَادِ عَنِ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ وَالْعَدِيمِ الَّذِي لَا يَجِدُ مَا يُنْفِقُ فِي غَزْوِهِ، وَالْغَرِيمِ وَمَنْ لَهُ وَالِدَانِ، وَحَطُّ الْإِصْرِ الَّذِي كَانَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، ورَفْعُ الْحَرَجِ إِنَّمَــا هُوَ لِمَنِ اسْتَقَامَ عَلَى مِنْهَاجِ الشَّرْعِ، وَأَمَّا السَّلَّابَةُ وَالسُّرَّاقُ وَأَصْحَابُ الْحُدُودِ فَعلَــيهِمُ الْحَــرَجُ، وَهُمْ جَاعِلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمُفَارَقَتِهِمُ الدِّينَ، وَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ أَعْظَمُ حَرَجًا مِنْ إِلْزَامِ ثُبُوتِ رَجُــلٍ لِاثْنَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعَ صِحَّةِ الْيَقِينِ وَجَوْدَةِ الْعَزْمِ لَيْسَ بِحَرَجٍ(٤)

واختلف العلماء في المراد بالجهاد في قوله"وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ"فعــن ابــن عبــاس أنّ المراد به قتال الكفار والمشركين، وهو مرويّ عن الضحاك أيضا، وعن عبد الله بن المبــارك:

---

(١)إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١٢٢/٦)

(٢)البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٣٩ـــ٥٤٠).

(٣)من لطائف وفوائد الجدول في إعراب القرآن الكريم لـــ محمود بن عبد الرحيم صافي، من خلال كتابه(الجدول في إعراب القــرآن الكــريم)، محمــود بــن عبــد الــرحيم صــافي (ت/١٣٧٦هـــ)(ص١٠٣٣)، جمع وترتيب/العاجز الفقيرعبد الرحمن القماش (من علماء الأزهر الشريف)

(٤)تفسير القرطبي (١٠٠/١٢)

أنه مخالفة النفس والهوى، والأولى أن يحمل على المعنى العام الذي يشمل هـذا وذاك، وقـد علمت فيما سبق أنّ الراجح في سورة الحج أنها مدنية ما عدا آيات ليست هذه الآية منها ، فلا يكون حينئذ مانع من حمل الجهاد على ما يشمل قتال الكفار وغيره، أما على اعتبار أنها مكيـة فيتعين تفسير الجهاد بجهاد النفس والشيطان على ما هو معروف، إذ إن القتال لـم يفـرض إلا بعد الهجرة، والجهاد في الله معناه الجهاد في سبيله، ومن أجل دينه، وحقّ الجهـاد فـي الله أن يكون بقوة وعزيمة صادقة، وأن يكون خالصا لإعلاء دين الله وتأييـد شـريعته، فـلا ينبغـي للمسلم أن يخشى في الانتصار للحق لومة لائم، كما لا يجوز له في جهاد الكفار أن يقاتل من أجل غنيمة أو غيرها من الشهوات الدنيوية، وعلى تفسير حق الجهاد بذلك تكون الآية محكمـة غير منسوخة(١).

وقَوْلُهُ تَعَالَى"هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا"اخْتُلِفَ فِي مَرْجِعِ الضَّمِيرِ الَّـذِي هُـوَ لَفْـظُ "هُوَ"مِنْ قَوْلِه"هُوَ سَمَّاكُمُ" فَقَالَ بَعْضُهُمْ:اللَّهُ هُوَ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ فـي هَـذَا، وَقَـالَ بَعْضُهُمْ"هُوَ"أَيْ:إِبْرَاهِيمُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَدَلَّ لِهَذَا بِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّـةً مُسْلِمَةً لَكَ"البقرة ١٢٨، وَبِهَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ قَرِينَتَانِ تَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ قَوْلَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ غَيْرُ صَوَابٍ، إِحْدَاهُمَا:أَنَّ اللَّـهَ قَـالَ هُـوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا، أَيِ:الْقُرْآنِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يُسَمِّهِمُ الْمُسْلِمِينَ فـي الْقُـرْآنِ، لِنُزُولِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِأَزْمَانٍ طَوِيلَةٍ، الْقَرِينَةُ الثَّانِيَةُ:أَنَّ الْأَفْعَالَ كُلَّهَا فِي السِّيَاقِ الْمَذْكُورِ رَاجِعَةٌ إِلَـى اللَّهِ، لَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَقَوْلُهُ"هُوَ اجْتَبَاكُمْ"، أَيِ:اللَّهُ "وَمَا جَعَلَ عليكمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"، أَيِ:اللَّـهُ، "هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ"أَيِ:اللَّهُ، فَإِنْ قِيلَ:الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى أَقْـرَبِ مَـذْكُورٍ، وَأَقْـرَبُ مَـذْكُورٍ لِلضَّمِيرِ الْمَذْكُورِ: هُوَ إِبْرَاهِيمُ، فَالْجَوَابُ:أَنَّ مَحَلَّ رُجُوعِ الضَّمِيرِ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ مَحَلُّهُ مَا لَمْ يَصْرِفْ عَنْهُ صَارِفٌ، وَهُنَا قَدْ صَرَفَ عَنْهُ صَارِفٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ"وَفِي هَذَا"يَعْنِي الْقُرْآنَ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِي سَمَّاهُمُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ:هُوَ اللَّهُ لَا إِبْرَاهِيمُ، وَكَذَلِكَ سِيَاقُ الْجُمَلِ الْمَـذْكُورَةِ قَبْلَـهُ نَحْوَ"هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عليكمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"، يُنَاسِبُهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ سَمَّاكُمْ أَيِ:اللَّهُ(٢).

وقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَنَّ الَّذِي سَمَّاهُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفـي هَذَا:هُوَ اللَّهُ، لَا إِبْرَاهِيمُ مَا نَصُّهُ، قُلْتُ:وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ"هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَـلَ عليكمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" ثُمَّ حَثَّهُمْ وَأَغْرَاهُمْ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ

(١)تفسير آيات الأحكام للسايس محمد على السايس الأستاذ بالأزهر الشريف، (ص٥٢٣)، ت/ ناجي سويدان، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، تاريخ النشر ٢٠٠٢/١٠/٠١

(٢)أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت/١٣٩٣هـ) (٣٠٢/٥)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيـروت، لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥م

مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِمُ الْخَلِيلِ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنَّتَهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِمَا نَوَّهَ بِهِ مِنْ ذِكْرِهَا، وَالثَّنَاءِ عليها فِي سَالِفِ الدَّهْرِ، وَقَدِيمِ الزَّمَانِ فِي كِتَابِ الْأَنْبِيَاءِ، تُتْلَى عَلَى الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ فَقَالَ:"هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ"أَيْ: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ(١).

وهنا لطيفة بلاغية في الآية الكريمة تتعلق بشهادة الرسول صلي الله عليه وسلم، وشهادة الأمة، قال تعالي"وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عليكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ"، وقال في سورة البقرة"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عليكُمْ شَهِيدًا"١٤٣، ففي هذين النصين نوعان من التقديم، أولهما:تقديم شهادة الأمة على الناس، على شهادة الرسول على الأمة في آية البقرة، وتقديم شهادة الرسول على الأمة، على شهادة الأمة على الناس في آية الحج، وهذا من التقديم غير الاصطلاحي، وثانيهما: تقديم"عليكم"على" شهيداً"في البقرة ثم الإتيان به على الأصل في آية الحج"شهيداً عليكم" وهذا من التقديم الاصطلاحي الذي يعني به البلاغيون، وسر التقديم في النوع الثاني ظاهر فقوله تعالى"عليكم شهيداً"في البقرة أفاد فيه تقديم الجار والمجرور"عليكم"تخصيص شهادة الرسول على الأمة دون ما غيرها من الأمم، وقد قال المفسرون إن المراد بشهادة الرسول هنا على الأمة شهادة لها بالعدالة والتزكية، لأن الله قد وصف الأمة بقوله"وَسَطاً"أي خياراً عدولاً، وعلى هذا فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يزكى غير أمته لقيام هذه الأمة مقام الشاهد على جميع الأمم، وهذا الفهم الذي فهمه المفسرون من شهادة الرسول على الأمة يفيدنا إلى أبعد مدى في فهم السر في النوع الأول الذي يصوره هذا السؤال، ثم لماذا قُدمت شهادة الأمة على شهادة الرسول في البقرة وعكس الأمر في الحج؟، والجواب:إن الكلام في سورة البقرة مسوق لتقرير عدالة الأمة، وكونها شاهدة على الأمم، أما شهادة الرسول عليها فهى تزكية لها لقبول شهادتها، والتزكية تكون بعد أداء الشهادة نفسها، إذ هي أصل والتزكية تابعة لها، ولولا ذلك لما قُدمت شهادة الأمة على شهادة الرسول لتباين المنزلتين، ووجه آخر للتقديم أن يقال إن الخطاب أصلاً مؤجه إلى الأمة"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ"وظاهر أن لَام التعليل داخلة على مَا من أجله كان الجعل، فتقديم شهادة الأمة على شهادة الرسول أمر اقتضاه حُسن النظم، وتلاؤم المعنى هذا في البقرة، أما في سورة الحج فقد جاء الترتيب بين الشهادتين على الأصل بتقديم شهادة الرسول على شهادة الأمة، وذلك لأن المعنى كما نص عليه المفسرون أن يشهد الرسول على أمته بأنه بلغها ما أنزِل إليه من ربه، وأن تشهد الأمة

(١)مختصر تفسير ابن كثير (٢/٥٥٧)

على الأمم السابقة بأن رسلهم قد بلغتهم ما أنزِل إليهم من ربهم، فموضوع الشهادتين واحد هو التبليغ، لذلك قُدِّمت شهادة الرسول، لأنها الأصل، وأخرت شهادة الأمة، لأنها الفرع إذ هي مترتبة عليها ومستقاة منها، فالتقديم هنا من باب ما هو أصل على ما هو فرع(١)، فالآية تجسد التزام المؤمنين بالجهاد ، وتؤكد على الهوية الدينية، وتبرز يسر الدين مما يعزز الإيمان ويحفز على الأفعال الصالحة، كما تؤكد على الاعتماد على الله تعالي المولى والنصير، وتطبيق هذه المفاهيم يتطلب وعياً مستمراً وإرادة قوية، مما يعزز الإيمان ويجعل الحياة اليومية أكثر توازنًا وسعادة، فقوله"وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ"يُظهر أهمية الجهاد في سبيل الله كواجب، مما يعكس الفخر والالتزام بالدين، وقوله"هُوَ اجْتَبَاكُمْ"يُعبر عن اختيار الله للمؤمنين، مما يمنحهم مكانة عظيمة ويعزز من مسؤولياتهم، وقوله"وَمَا جَعَلَ عليكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" يُبرز أن الإسلام دين يسر، مما يُعطي الأمل للمؤمنين في التمسك به، ومِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ"، يُعزز الهوية الدينية ويُعبر عن الفخر بالانتماء إلى نبي عظيم، مما يربط الحاضر بالماضي، وقوله "لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عليكُمْ" يُظهر أهمية الرسالة النبوية ويعكس مسؤولية المؤمنين في تقديم الشهادة على الناس، فالآية تجسد بلاغة الالتزام بالجهاد، واليسر في الدين، وتأكيد الهوية الدينية، مما يُعزز من قوة الإيمان ويحفز الأفعال الصالحة.

---

(١)خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني(ت/١٤٢٩هـ)(٢/ ١٥٥/١٥٧)، الناشر: مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م

الخاتمة وتشمل أهم النتائج:

إن دراسة آيات ملة إبراهيم ليست مجرد دراسة تاريخية، بل هي أداة فعالة لمواجهة التحـــديات المعاصرة وتعزيز القيم الإنسانية، مما يسهم في بناء مجتمع متماسك ومتقـــدم، فآيـــات ملـــة إبراهيم تمثل نموذجًا للإيمان والتوحيد، مما يساعد المسلمين على تعزيز هـــويتهم فـــي عـــالم متنوع ثقافيًا ودينيًا، وتبرز قيم الصبر والإخلاص والعدل، مما يمكن أن يوجـــه الأفـــراد فـــي مواجهة التحديات الأخلاقية الراهنة، كما أن دراسة آيات ملة إبراهيم تعـــزز فكـــرة التعـــايش السلمي بين الأديان، حيث كان إبراهيم رمـــزًا للتـــسامح والاحتـــرام المتبـــادل، وفـــي ظـــل الضغوطات النفسية والاجتماعية المعاصرة، ودراسة آيات ملة إبراهيم توفر مصدرًا للإلهـــام والتوجيه الروحي، مما يساعد الأفراد على التغلب على التحديات، وكـــذلك تـــذكير المـــسلمين بأهمية العمل الصالح في مواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية، وتفـــتح المجـــال لإعـــادة تفسير القيم الإسلامية بما يتناسب مع التحديات المعاصرة، مما يعزز من قدرة المجتمـــع علـــى التكيف مع هذه التحديات، وفي ختام هذا البحث، يمكن القول إن آيات ملة إبراهيم عليه السلام تحمل دلالات عميقة وأهمية كبيرة في القرآن الكريم، فهي تؤكد على قيم التوحيد والإخـــلاص لله، وتبرز دور إبراهيم عليه السلام كنموذج يحتذى به في الإيمـــان والطاعـــة، ومـــن خـــلال دراسة هذه الآيات، يتضح كيف تتجسد معاني الهوية الإسلامية والالتزام بالمبادئ الأخلاقيـــة والعملية التي دعا إليها هذا النبي العظيم، والتأمل في آيات ملة إبراهيم عليه السلام يعزز فهـــم المسلمين لواجباتهم الدينية، ويشجعهم على اتباع الطريق المستقيم الـــذي يـــربطهم بتـــاريخهم الروحي، كما أن هذه الآيات تمثل دعوة للتفكر في طبيعة العلاقة بين العبد وربه، مما يعمـــق الإيمان ويزيد من الوعي بأهمية العمل الصالح، لذا، فإن فهم آيات ملة إبراهيم عليـــه الـــسلام يعد أساسًا لتعزيز الهوية الإسلامية في العصر الحديث، ويشكل نقطة انطلاق للتفاعل الإيجابي مع القيم الإنسانية العليا التي دعا إليها الإسلام.

المراجع والمصادر:

القرآن الكريم جل من أنزله

كتب التفسير:

ــ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي(ت/١٣٩٣هـ)دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، عام النشر ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

ــ إعراب القرآن وبيانه محيي الدين بن أحمد مصطفي درويش(ت/١٤٠٣هـ)، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، (دار اليمامة، دمشق، بيروت)، (دار ابن كثير، دمشق، بيروت)، ط٤، ١٤١٥هـ.

ــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي(ت/٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ــ أيسر التفاسير للجزائري جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

ــ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي(ت/١٢٢٤هـ)، ت/ أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، الطبعة ١٤١٩هـ.

ــ البحر المحيط في التفسير أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي(ت/٧٤٥هـ)، ت/ صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

ــ التفسير الحديث[مرتب حسب ترتيب النزول]، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١٣٨٣هـ.

ــ التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب(ت/بعد١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة.

ــ التفسير الميسر نخبة من أساتذة التفسير، الناشر:مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ط٢، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

ــ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د/وهبة بن مصطفي الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ.

ــ التفسير الوسيط مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١(١٣٩٣هـ ١٩٧٣م)، (١٤١٤هـ ١٩٩٣م).

ـ تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت/١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

ـ روح البيان إسماعيل حقي بن مصطفي الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت/١١٢٧هـ) دار الفكر، بيروت.

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي(ت/١٢٧٠هـ)، ت/ على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

ـ زاد المسير في علم التفسير جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي(ت/٥٩٧هـ)، ت/ الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

ـ زهر التفاسير محمد بن أحمد بن مصطفي بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت/١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي.

ـ سنن التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د/ وهبة بن مصطفي الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق.

ـ صفوة التفاسير محمد على الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

ـ فتح البيان في مقاصد القرآن أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن على ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي(ت/١٣٠٧هـ)، عني بطبعه وقدّم له وراجعه:خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

ـ فتح القدير للشوكاني محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت/١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

ـ مفاتيح الغيب أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي(ت/٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣: ١٤٢٠هـ.

ـ مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية(ت/٧٥١هـ)، بترقيم الشاملة آليا، جمع وترتيب: العاجز الفقير عبد الرحمن القماش(من علماء الأزهر الشريف)، عدد الأجزاء ٢٢، الكتاب مرقم آليا، وهو غير مطبوع.

ـ مختصر تفسير ابن كثير(اختصار وتحقيق) محمد على الصابوني، الناشر، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط٧، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م.

ــ النكت والعيون أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي(ت/٤٥٠هــ)، ت/ السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ــ الموسوعة القرآنية إبراهيم بن إسماعيل الأبياري(ت/١٤١٤هــ)، مؤسسة سجل العرب، الطبعة ١٤٠٥هــ.

ــ تفسير ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت/٧٧٤هــ)، ت/ محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد على بيضون، بيروت، ط١، ١٤١٩هــ.

ــ تفسير البغوي معالم التنزيل في تفسير القرآن محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي(ت/٥١٠هــ)، ت/عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هــ.

ــ تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن(ت/٧٤١هــ)، تصحيح:محمد على شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هــ.

ــ تفسير الحدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد على بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هــ، ٢٠٠١م.

ــ تفسير الشعراوي محمد متولي الشعراوي(ت/١٤١٨هــ)، مطابع أخبار اليوم.

ــ تفسير النسفي(مدارك التنزيل وحقائق التأويل) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي(ت/٧١٠هــ)، حققه وخرج أحاديثه:يوسف على بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هــ ١٩٩٨م.

ــ تفسير المنار محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا على خليفة القلموني الحسيني(ت/١٣٥٤هــ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر ١٩٩٠م.

ــ التفسير الواضح الحجازي محمد محمود، دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٣هــ.

ــ التفسير الوسيط أ.د/ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط١.

ــ لطائف الإشارات = تفسير القشيري عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت/٤٦٥هــ)، ت/ إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣.

ــ محاسن التأويل محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت/١٣٣٢هـ)، ت/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٤١٨هـ.
ــ من لطائف وأسرار(تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور)من خلال تفسيره "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"(نسخة مختصرة للطائف)، محمد الطاهر بن عاشور(ت/١٣٩٣هـ)، جمع وترتيب/ العاجز الفقير عبد الرحمن القماش.
ــ الموسوعة القرآنية إبراهيم بن إسماعيل الأبياري(ت/١٤١٤هـ)، مؤسسة سجل العرب، الطبعة ١٤٠٥ هـ.
ــ الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين القرطبي(ت/٦٧١هـ)، ت/ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، الطبعة: ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م.

كتب علوم القرآن:

ــ أحكام القرآن للجصاص أحمد بن على أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي(ت/٣٧٠هـ)، ت/ عبد السلام محمد على شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ/١٩٩٤م.
ــ أحكام القرآن لابن العربي القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الأشبيلي المالكي(ت/٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه:محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
ــ الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل بهجت عبد الواحد صالح، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط٢، ١٤١٨هـ.
ــ إعراب القرآن للأصبهاني إسماعيل بن محمد بن الفضل بن على القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة(ت/٥٣٥هـ)، قدّمت له ووثقت نصوصه، د/ فائزة بنت عمر المؤيد، الناشر:غير معروف(فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض)، ط١، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥م.
ــ إعراب القرآن للنحاس أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي(ت/٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه:عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد على بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٤٢١هـ.
ــ التبيان في إعراب القرآن أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت/٦١٦هـ) ، ت/على محمد البجاوي، الناشر:عيسى البابي الحلبي وشركاه.
ــ الجدول في إعراب القرآن محمود بن عبد الرحيم صافي(ت/١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط٤، ١٤١٨هـ.

ــ مجاز القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري(ت/٢٠٩هـ)، ت/ محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة ١٣٨١هـ.
ــ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن على بن أبي بكر البقاعي(ت/٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
ــ النشر في القراءات العشر شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت/٨٣٣هـ)، ت/على محمد الضباع(ت/١٣٨٠هـ)، الناشر:المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية].
ــ التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني(ت/٢٠٠هـ)، قدّمت له وحققته:هند شلبي، الناشر:الشركة التونسية للتوزيع، عام النشر: ١٩٧٩م.
ــ دراسات لأسلوب القرآن الكريم محمد عبد الخالق عضيمة(ت/١٤٠٤ هـ)، تصدير/ محمود محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة:بدون.

كتب اللغة:

ــ أساس البلاغة أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت/٥٣٨هـ)، ت/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
ــ العين أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت/١٧٠هـ)، ت/ د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
ــ التعريفات على بن محمد بن على الزين الشريف الجرجاني(ت/٨١٦هـ)، ت/ ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
ــ الفروق اللغوية للعسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران(ت/٣٩٥هـ)، حققه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر، القاهرة، مصر.
ــ القاموس المحيط مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى(ت/٨١٧هـ)، ت/ مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف:محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
ــ تاج العروس محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي(ت/١٢٠٥هـ)، ت/ مجموعة من المحققين، الناشر:دار الهداية.
ــ معاني القرآن وإعرابه للزجاج إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت/٣١١هـ) ، ت/ عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م.

ــ معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور (ت/١٣٤٨هـ)، ت/ دكتور حسين نصّار، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، مصر، ط٢، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
ــ المفردات للراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت/٥٠٢هـ)، ت/ محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان.
ــ المفردات في غريب القرآن أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت/٥٠٢هـ)، ت/ صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
ــ المحيط في اللغة إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد(ت/٣٨٥ هـ)، عالم الكتب، بيروت/ لبنان، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤ م، ط١.
ــ لسان العرب محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي(ت/٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ط المعارف.
ــ مقاييس اللغة أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين(ت/٣٩٥هـ)، ت/ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م

كتب العقيدة:

ــ الإيمان بالقدر على محمد محمد الصلابي، (بترقيم الشاملة آليا)، الناشر:المكتبة العصرية للطباعة والنشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط١.
ــ الملل والنحل أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني(ت/٥٤٨ هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤، ت/محمد سيد كيلاني.
ــ مدخل لدراسة الملل والنحل د/ أحمد شوقي إبراهيم على، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد السابع، العدد الثاني والثلاثين.
ــ شرح العقيدة الطحاوية صدر الدين محمد بن علاء الدين على بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي(ت/٧٩٢هـ) تحقيق:جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة(عن مطبوعة المكتب الإسلامي)الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

كتب التاريخ:

ــ البداية والنهاية أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت/٧٧٤هـ)، ت/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧ م، سنة النشر١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م.

ــ تاريخ الفكر الديني الجاهلي محمد إبراهيم الفيومي (ت/١٤٢٧هـــ)، دار الفكــر العربــي، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤.

كتب الفتاوي:

ــ الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون عبــد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي(ت/٩١١هــ)، دار الكتــب العلميــة، بيــروت، لبنــان، ١٤٢١هــ ، ٢٠٠٠م، ط١

كتب ابن القيم:

ــ بدائع الفوائد ط عالم الفوائد أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قــيم الجوزيــة (ت/٦٩١، ٧٥١هــ)، ت/ على بن محمد العمران(إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد)، دار عالم الفوائــد، مكــة، ط١، ١٤٢٥هــ.

ــ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية(ت/٧٥١هــ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٨هــ/١٩٧٨م.

الرسائل العلمية والأبحاث:

ــ خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولــى، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني(ت/١٤٢٩هــ)، الناشر:مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣هــ، ١٩٩٢م.

ــ معاني القرآن أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد(ت/٣٣٨هــ)، ت/ محمد على الصابوني، جامعــة أم القرى، مكة المكرمة، ط١.

ــ مفهوم ملة إبراهيم عليه السلام ومقوماتها في القرآن الكريم، محمد أكرتن، جامعة المالك الــسعدي، المغرب، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان.

أصول الفقه والقواعد الفقهية:

ــ الواضح في أصول الفقه أبو الوفاء، على بن عقيل بن محمــد بــن عقيــل البغــدادي الظفــري، (ت/٥١٣ه)، ت/د/عَبد الله بن عَبد المُحسن التركي، الناشر:مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هــ، ١٩٩٩م.

كتب الحديث الشريف:

ــ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وســلم مــسلم بــن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت/٢٦١هــ)ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التــراث العربي، بيروت.